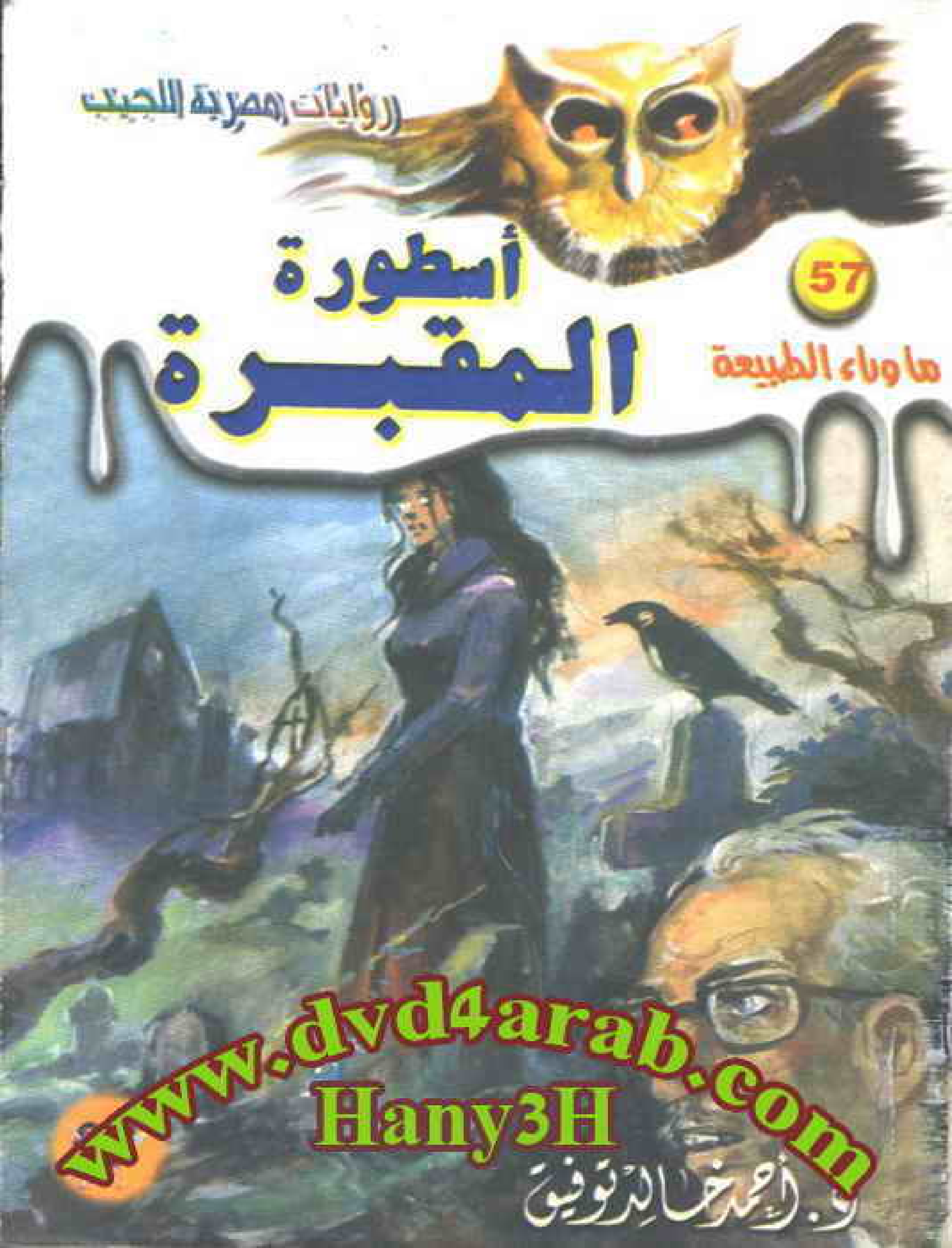

روايات مصرية للجيب
أسطورة
المقبرة
57
ما وراء الطبيعة
www.dvd4arab.com
Hany3H
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

أنتم تعرفون (نجيب السمدونى) فلن أعلق كثيرًا ..

يمكننا أن نتجاهل ما يقول كليَة ، فلم تعد سنى ولاصحتى تسمحان لى بأن أحقق فى هذا النوع من القصص .. لو كنت أصغر من هذا ثلاثين عامًا ، لذهبت إليه وبحثت فى كل ركن من داره عن تلك البقع ..

بقع دموية على البساط .. كلما غُسلت ظهرت من جديد .. هذه القصة معتادة وقد قابلتها مرارًا .. لقد صرت أغلق بابى كى لا أصطدم بهؤلاء الذين يرون بقعًا دموية على بساطهم .. افتح النافذة يدخل عشرة منهم .. افتح صنبور المياه ينزل لك خمسة منهم ..

لكن الجديد فى قصة هذا الرجل هى الخادمة الطفلة التي تنام فى المطبخ ، والتى تدخل زوجته المطبخ ليلاً لتشرب لتفاجأ بأن طولها صار ثلاثة أمتار ، حتى إن قدميها تتسلقان الجدار .. دعك من ملامح وجهها التى تذكرها وقتها بأسد عجوز نائم ..

أنتم تعرفون (نجيب السمدونى) .. لهذا يمكننا أن ننسى هذه القصة وإن اتضح أنها صحيحة فلن نخسر الكثير .. إن الخادمات اللاتى يستطيل جسدهن ليلاً موجودات فى كل مكان .. لقد صرت أغلق بابى كى لا أصطدم بهن .. افتح النافذة تدخل عشرة منهن .. افتح صنبور المياه تنزل لك خمس منهن ..

ثم القط .. القط الذى يضحك ضحكة بشرية واضحة .. أنتم تعرفون (نجيب السمدونى) .. لهذا دعونا نتجاهل هذا أيضًا .. لا أجد شيئًا مسليًا فى هذا كله .. لقد صرت أغلق بابى كى لا أصطدم بالقطط التى تضحك ضحكة بشرية .. افتح النافذة يدخل لك عشر منها .. افتح صنبور المياه ينزل لك خمس منها ..

ولكن دعونا من هذا الهراء ولنبدأ قصتنا ..

سأحدثكم عن أسطورة المقبرة ..

أعرف أن المقابر المفزعة ليست موضوعًا جديدًا .. ماذا تقولون ؟ تقولون إن هذه القصة معتادة وقد قابلتموها مرارًا ؟ تقولون إنكم صرتم تغلقون الأبواب

كى لا تصطدموا بمقبرة مفزعة ؟ تقولون إنكم تفتحون النافذة فتدخل عشر منها .. تفتحون صنبور المياه فتنزل لكم خمس منها ؟

أنتم تتلفظون بكلمات غريبة على مسمعى ، وإننى لعاجز حقًا عن فهم شباب اليوم ..

من أين تأتون بهذه السخرية المقيتة ؟

من علمكم تسفيه الآخرين إلى هذا الحد ؟

على كل حال ، سأحكى لكم القصة .. وأعرف أنكم ستحبونها .. إنها مرعبة .. وأنتم تعرفون أن الرعب يحتاج إلى قدر كبير من الخيال .. إلى سعة صدر وصفاء بال .. يحتاج إلى هدوء .. يحتاج إلى ليل ..

هذا هو ما قاله (لافكرافت) الذى اعتبر كاتب قصص الرعب مسكينًا ، يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ كى يعترف القارئ بأنه خاف ..

تعالوا الآن واصغوا إلى ..

إن (رفعت إسماعيل) العجوز سيحكى لكم قصة أخرى ......

العام ١٦٧٥ ..

المكان : (ليفورد) .. البلدة الهادئة فى مقاطعة (تيركونل) كما كانت تعرف فى ذلك العصر أو (دونيجال) كما نعرفها الآن .. إن الخبراء منكم فى أمور أيرلندا يعرفون أن (دونيجال) مقاطعة فى أقصى شمال (أيرلندا) تطل على المحيط الأطلسى من جهتين . إنها مقاطعة رعوية وعرة مليئة بالجبال ، وتشكل حاليًا جزءًا من جمهورية أيرلندا ، وجزءًا مما يعرف بـ (أولستر) التى تتكون من تسع مقاطعات .. و... إن الموضوع معقد جدًا لهذا لن أدخل فى التفاصيل التى تجدونها فى أى كتاب جغرافيا أو تاريخ ..

الآن يحتشد أهالى البلدة الهادئة التى لا يحدث فيها شىء على الإطلاق .. اليوم من الأيام النادرة التى تحدث فيها أشياء ، ولهذا لم يبق واحد فى داره ..

الحدث : أى حدث غير حرق الساحرة طبعًا ؟

فى هذه البلدة لا يحدث شىء مثير سوى تعذيب أحد المهرطقين من حين لآخر ، أو حرق ساحرة .. وتهمة الساحرة هذه مطاطة تتسع لأية امرأة تعالج المرضى بطريقة غريبة ، أو تشاهد عند المستنقعات ليلاً ، أو توجد فى جسدها علامة ما يفترض أن الشيطان يتركها فى زوجاته .. كما قلت سابقًا كل هذه التفاصيل الدقيقة مشروحة فى كتاب (مطرقة الساحرات) الرهيب ..

عندها يكون الاستجواب .. ثم التعذيب .. والتعذيب أسلوب عبقرى فى استخلاص الحقائق ، يستطيع أن يقنع فأرًا بأن يعترف بقتل الأسد ، أو يقنعك بالاعتراف بتزعم عصابات المافيا فى الثلاثينات ..

كثيرات بريئات هلكن بهذه الطريقة .. أما المرأة التى تصمد فكانوا يقيدونها ويلقون بها فى الماء .. فإن غرقت اتضح أنها بريئة للأسف ، وإن طفت عرف الجميع أنها ساحرة وعندها تعدم !

يجب أن نقول هنا إن (هيلين) أو (رونيل السوداء) ـ كما يدعونها فى البلدة ـ كانت غريبة الأطوار جدًا ..

أولاً كانت جميلة جدًا .. كان جمالها من الطراز الذى يخطف الأبصار ويذهل العقول .. هناك أمثلة نادرة جدًا من هذا الطراز من (الجمال المؤلم) .. وكما نعرف يقولون عن المرأة بارعة الجمال إنها (ساحرة) .. يسهل إذن تصديق ما يقال عنها فى هذا الصدد ..

ثانيًا : لماذا لم تتزوج (رونيل السوداء) ؟ لقد هام بها السير (باتريك مليجان) حبًا وفعل كل ما هو ممكن كي تقبل أن تكون له .. إن السير (مليجان) ليس سيئًا .. ويمكن بسهولة أن تدرك أنه ثرى .. فما الذى ترفضه هذه الراعية الفقيرة فى رجل كهذا ؟

الشباب ؟ هذا وارد .. إذن لنر ما سيحدث حين يتقدم إليها أقوى شاب فى البلدة وأكثرهم وسامة .. إنه (جون أونيل) الذى لم يقل أحد قط إنه ليس حلم كل فتاة فى البلدة .. لقد كلمها ثم قابل أمها العجوز

مائة مرة .. لكن الإجابة دومًا هى : لا .. (لا) غير مسببة هى نوع من النقد الانطباعى الذى لانفع له ..

هذه النقطة هى الأخرى لابد أن تثير التساؤل ..

ثالثًا : لماذا تلتزم بثياب الحداد السوداء طيلة الوقت ؟

رابعًا : ماذا يدفع فتاة حسناء ترتدى الأسود إلى الذهاب إلى المقابر ليلاً وحدها ؟ هناك من شاهدوها وهم يقسمون على أنها كانت تمشى بخفة بالغة .. برغم أن طريق المقابر وعر ملىء بالمستنقعات .. لم تكن تمشى بل كانت (تسرى) .. (تنساب) .. هكذا يؤكدون .. ومما يزيد الأمور سوءًا أنها تختار الليالى القمرية لهذه الرحلات وإلا ما رأوها أصلاً ..

وهكذا أخبر (جيمس) العجوز زوجته .. وزوجته أخبرت (إليوت) .. و(إليوت) أخبر (جاك) .. و(جاك) أخبر القس .. والقس ـ الذى تذكر أنه لم ير الفتاة فى كنيسته منذ زمن ـ أخبر السيد (كيلبارون) الحاكم ..

وهكذا دارت العجلة الشهيرة ..

وقد تمت محاكمة سريعة وإن كان من العسير أن نزعم أنها ظالمة .. إن للفتاة كهفًا قرب المقابر .. وكان هذا الكهف يحوى أشياء تقشعر لها الأبدان ، حتى إن القس لم يتحمل نفسه وأفرغ معدته لدى رؤيتها .. كانت الحقيقة التى أدركها الجميع هى أن (رونيل السوداء) كانت تفعل بالأطفال ما تفعله أية ساحرة شريرة أخرى .. كانت تلتهمهم .. لكن غرض الالتهام لم يكن الجوع طبعًا ، بل استكمالاً لطقوس أهم ..

هذه إذن من المرات القليلة التى كانت فيها تهمة السحر مؤكدة وعادلة ..

والآن جاء اليوم الكبير ..

خرج أهل البلدة جميعًا والحماسة تغلبهم كى يروا المشهد الذى لايجود الزمان بمثله إلا كل عام ..

ثم إن رجال الشرطة فى البلدة ظهروا وبينهم كانت الفتاة التى بدت شاحبة جدًا ، لكن من الظلم أن نقول إنها كانت خائفة .. كانت ترتدى ثوبًا من الخيش البسيط وقد وضعت يديها فى قطعة من الخشب تحيط بعنقها

فى أسلوب (الفلقة) الشهير ، الذى كان يعتقد أنه ضرورى لتوبة الساحرات ..

كان القاضى (ستيوارت بارنيل) المحترم موجودًا ، وعلى المنصة وقف الجلاد جوار العمود الخشبى يضع الحطب والقش ..

صعدوا بها الدرجات الخشبية .. وأعلى الدرج كان القس ينتظرها ..

سألها فى اقتضاب :

- « هل تعلنين توبتك الآن ؟»

فالحقيقة أنه لم يكن خبيرًا فى هذه الطقوس ، بينما كان الأسبان والألمان والفرنسيون علماء فيها .. إن التاريخ يحكى لنا قصصًا نادرة جدًا عن حرق الساحرات فى الجزيرة .. بينما يعج بتلك القصص فى أسبانيا ، كما تشتهر (سيلم) الأمريكية عبر المحيط الأطلسى بسمعة سيئة مماثلة ..

كانت الإجراءات مقتضبة وكذا كان رد فعل الفتاة ..



على حين نظر الجـــلاد إلى (بارنيل) ينتظر إشـــارته ..

نظرت للقس بعينين متسعتين تنبعث منهما النيران تقريبًا .. لايعرف السبب لكن هذه النظرة الحاقدة هزته من الأعماق وجعلته يصمت تمامًا ..

ولنفس السبب لم ينظر لها الجلاد كثيرًا وهو يقيدها إلى العمود ..

هنا دوت صرخة ألم من بين الجمع :

ـ «الرحمة !»

ونظر الناس ليروا الشاب (جون أونيل) الذى انفجر فجأة فى بكاء هستيرى جدير بالمراهقات ، من العسير نوعًا أن ترى حبيبتك فى هذا الموقف حتى لو قيل لك إنها ساحرة شريرة ..

ويحاول الفتى القوى أن يشق طريقه إلى المنصة ، لكن القوم تكأكأوا من حوله ، وقيده أشداء الرجال من ذراعيه كى لا يتهور ..

على حين نظر الجلاد إلى (بارنيل) ينتظر إشارته ..

وكان هذا الأخير لايتميز برقة القلب .. كان من جلادى الساحرات المعروفين الذين يعطون المحرقة مزية الشك .. من الخير حرق خمس بريئات بدلاً من ترك ساحرة واحدة تعيش ..

هزّ الرجل رأسه فى وقار فقذف الجلاد بالشعلة على الخشب ..

بدأت الزهرة البرتقالية المخيفة تهمس بأسرارها .. تتوهج .. تضطرم ..

وتصاعدت شهقات رعب ممزوج بالنشوة من الواقفين ..

هنا فقط تكلمت (رونيل السوداء) ..

كان الدخان يتصاعد فلم يتبين القوم ملامحها وإن أكد البعض أنه لم يعد وجهها ..

فقط كانْ الصوت أغلظ مما يمكن تصوره .. صوتًا ذا صدى كأنما ألف شيطان يتكلمون بصوت واحد :

ـ «أيها البلهاء ! لقد حكمتم بالويل على أحفادكم ! وليكونن انتقامى شنيعًا !! ساعود بعد ـ .. ا .. م .. ا .. ئة .. عام .. كى ....»

لقد تلاشى صوتها مع النيران التى راحت تتعالى ..

ليس فى هذا شىء جديد ..

كل الساحرات يهددن أو يقلن نبوءة كريهة ما وهن على المحرقة .. إن الساحرة التى لا تفعل ذلك إنما تجازف بسمعتها .. وقد اعتاد أهل البلدة على هذا ..

لكن كانت هذه هى المرة الأولى التى تلقى الكلمات كل هذا الرعب فيهم ..

ولم ينتظر الكثيرون حتى تتلاشى سحب الدخان كما هى العادة ليروا الجسد المتفحم ..

لسبب ما عاد أكثرهم إلى داره ، ليغلق الباب عليه وعلى أطفاله ، ثم يندس تحت الأغطية راجفًا مرددًا الصلوات ..

لسبب ما لم يبد الفخر على الجلاد بعدما أتم عمله الرهيب ..

لسبب ما لم يحاول أحد الكلام عن هذا اليوم قط ..

وفى قبر بلا شاهد فى مقبرة المدينة وضعوا بقايا (رونيل السوداء) .. ومن يومها نسى الجميع أو تناسوا هذه القصة المؤسفة ..

وبعد هذا بثلاثمائة عام زارت المكان امرأة اسكتلندية شقراء ..

كان اسمها (ماجى ماكيلوب) ...

* * *

العام ١٩٧٥ :

المكان : (ليفورد) فى (دونيجال) كما نعرفها الآن و(تيركونل) أو (أودونيل) كما كانت تعرف فى الماضى ..

فى الفترة الأخيرة ، يبدو أن حارس المقابر (جيمس إدوود) قد لاحظ عدة أشياء لاتبعث الراحة فى النفس .. كل حراس المقابر يلاحظون أشياء غريبة أهمها غالبًا الجثث التى تحاول الخروج من القبور ليلاً .. وليس الرجل استثناء ..

لكن ما لاحظه هو كالتالى :

- « فى الليالى المقمرة بالذات .. بعضها لاكلها .. أرى عددًا من النساء يمر عبر شواهد القبور .. لا أستطيع أن أصفهن بدقة ، لكننى أعرف جيدًا أنهن مسربلات فى عباءات طويلة وأن شعورهن منكوشة ثائرة ... لاداعى لأن أقول إننى تجاسرت أكثر مرة ولحقت بهن .. لكننى كنت أصل إلى هناك فلا أرى أحدًا على الإطلاق ..

وقد قررت أن أقنع نفسى بأن هذا كله نوع من الهلاوس الليلية .. إن منظر المقابر فى ضوء القمر ليثير شتى أنواع الخيالات فى النفس حتى بالنسبة لمن كانت تلك مهنته ..

« لكنى من جديد أرى هذا المشهد من حين لآخر .. ومن جديد ألاحظ أنهن يحمن حول قبر بعينه .. يصنعن حوله دوائر وربما يرقصن رقصًا مجنونًا مخيفًا ... الحقيقة أن الأمر كله يذكرنى بشىء ما مخيف .. بحفلات سحرية .. بلون من طقوس الخصوبة يمارس هنالك فى الظلام .. لا أدرى .. لكننى كلما أخبرت واحدًا بهذه القصة ضحك كثيرًا ، وقال لى : إننا فى أيرلندا يا رجل .. وفى أى قرن ؟ فى القرن العشرين .. كف عن هذا الهراء ..

« أما الأذكياء بحق فكانوا يسألوننى عن أنواع الكحول التى أشربها فى الآونة الأخيرة .. وهم جميعًا يعرفون أننى لا أقرب الخمور .. من السهل أن أكون مجنونًا لكن من المستحيل أن أكون ثملاً ..

« إننى أؤمن بأن مقبرة (ليفورد) تحوى سرًا مخيفًا .. »

* * *

ولم تكن (ماجى ماكيلوب) تعرف شيئًا من هذا ..

إن لها أسبوعين فى أيرلندا وهى ليست زيارتها الأولى .. لكنها فى هذه المرة كانت على موعد .. (رفعت إسماعيل) قادم لأحد المؤتمرات العلمية فى جامعة (دوبلين) .. أى أنه سيكون قريبًا جدًا منها ، وكانت هى تنوى من البداية أن تقضى بعض أيام فى (أيرلندا) لأن هواية التصوير القديمة عادت تغلبها هذه الأيام .. وقد اختارت (دونيجال) كى تزورها ، وتقضى الوقت فى تصوير القلاع القديمة المهيبة على الساحل هناك .. قلعة (كيلبارون) قرب (باليشانون) وقلاع ملوك (أيرلندا) الأوائل فى (لو سويلى) ..

كانت (ماجى) قد نشأت فى قصر .. الحقيقة أنها كانت قلعة مخيفة إلى حد ما .. ومن الطبيعى أن حياتها فيها وحيدة بعد وفاة أبيها كانت خبرة مرعبة ..

لكنها تعلمت فن (تذوق القلاع) من نشأتها .. وأدمنت ذلك الشعور الغامض الذى هو مزيج من الرعب والرهبة والافتتان وسحر التاريخ والجمال الذى نشعر به حين نرى القلاع ..

أشباح ؟ إن قلاع اسكتلندا تعج بها ، وهى لم تتصور قط أن هناك بعض الأشباح قد بقيت لأيرلندا .. من المستحيل أن يبقى شبح واحد لشعوب الأرض المسكينة بعدما احتكرتها اسكتلندا جميعًا .. إن كثيرًا من المفكرين الساخرين اعتبروا أشباح اسكتلندا موظفين فى السياحة هناك .. ولن يكون غريبًا أن تقبض هذه الأشباح راتبها آخر الشهر من الحكومة ..

لكن قلاع أيرلندا الرهيبة لها مذاق خاص لم تعتده (ماجى) ، وهى لم تعرف لنفسها طيلة حياتها إلا هوايتين محببتين حقًا : دراسة الفيزياء - لو كانت هذه هواية - والتصوير الفوتوغرافى الذى لم تكن موفقة فيه فى البداية ، ثم أجادته بشدة وصار يسرى فى عروقها كالدماء ..

الجديد هنا أنها كانت ترى البلاد بعينين بريئتين فيهما بكارة .. هاتان العينان اللتان يملكهما أى طفل وتجعلانك ترى كل شىء بمنظور مختلف كأنك تراه للمرة الأولى ..

الحقيقة أن الصغيرة (إليانور ماكدوجلاس) ذات السبعة أعوام طفلة رائعة الجمال .. أضف الشعر الأشقر الطويل حتى الخصر إلى العينين الزرقاوين الواسعتين ، تجد أنها دمية حقيقية ، وكانت تحب (ماجى) بجنون .. السبب الظاهر طبعًا هو أنها قريبتها .. لكن لو أحب كل إنسان أقاربه بهذا الجنون لتحول العالم إلى جنة .. إن (ماجى) برغم ذكائها الخارق وأعوامها التى تجاوزت الأربعين طفلة رائعة الجمال هى الأخرى .. ولاتحتاج إلى مجهود كبير كى تفكر وتضحك وتحلم كالأطفال ، وكانت غريزة الأطفال الجهنمية لاتخطئ فى هذا الصدد .. دعها تدخل أية قاعة مزدحمة .. تجد الأطفال يتجهون نحوها لاشعوريًا .. دعها تداعب رضيعًا تجده يقرقر ضحكًا ، بينما لو داعبته أنا لانفجر فى بكاء مجنون حتى يزرق لونه ويموت ..

(إلياتور) إذن فى ضيافة (ماجى) .. وهى ضيافة كانت (ماجى) تتوق لها من زمن ... وهكذا تأخذ ضيفتها الصغيرة فى رحلتها تلك إلى أيرلندا ، وإن رسمت لها خططًا أكثر طموحًا .. ماذا عن فرنسا ؟ ماذا عن إيطاليا ؟ بل ماذا عن الشرق الأقصى وربما مصر ؟

فقط لو أن أهلها سمحوا لها ، وهذا مستحيل على كل حال .. ولو أنها تركت لنفسها العنان لاختطفت الطفلة إلى مكان قصى ، ويومها لن تراها أمها إلا بعد ما تدفع ثمن التذكرة فى كل مرة ..

الآن قدّمنا لك الأسباب التى دفعت (ماجى) إلى القدوم إلى هذا المكان بالذات ..

أما عن سبب ذهابها إلى المقبرة ليلاً فبسيط جدًا .. إنه القمر .. إنه مكتمل الليلة ، ولك أن تتصور المشهد المهيب للكنيسة العتيقة الواقفة تغلفها الظلال والأشعة الفضية الباردة .. صحيح أن المقابر تقع على مرمى حجر من الكنيسة ، لكن من قال إن المقابر لا تصلح لوحة رائعة ذات طابع قوطى محبب ؟

كانت الاستعدادات بسيطة .. (بول أوفر) سميك لها والسويتر ذو الكبود للطفلة .. ثم القفازات .. لا غنى عن القفازات .. فيلم حساس يناسب التصوير الليلى مع حامل لا غنى عنه لهذه الصور طويلة التعريض ..

وغادرت الفتاتان الخان فى التاسعة مساء ..

سألتها المسز (بانكروفت) عن سبب خروجها ليلاً ، فقالت (ماجى) ضاحكة :

ـ « بعض صور للكنيسة فى ضوء القمر .. »

قالت صاحبة الخان ذات الشعر الأبيض المعقوص :

ـ « ولكن .. ليكن .. أنت ذات حساسية للصور الجيدة .. »

ـ « لقد كففت عن اعتبار نفسى هاوية منذ زمن .. سيأتى يوم تتقاتل فيه الصحف على تعيينى .. »

ـ « خذى الحذر إذن من الحفر .. إن بلدتنا وعرة .. ولكن لا .. لا بد أن القمر قد جعل الرؤية كأنما هى فى النهار .. أنت فاتنة يا عزيزتى .. »

وهكذا خرجت (ماجى) مع الطفلة ميممتين وجهيهما شطر المقبرة ..

كانت البلدة خالية تمامًا .. البرد والظلام جعلا الجميع يكمنون فى ديارهم جوار المدفأة .. وكانت (ماجى) تفضل هذا على كل حال .. إن سكان هذه البلدان الصغيرة يتعاملون مع الكاميرا باعتبارها جسمًا شاذًا هبط من المريخ ..

أخيرًا ترى (ماجى) المشهد المهيب الذى وصفناه .. تشهق انبهارًا ثم تنصب الحامل وتعالج سرعة التعريض .. إنها تفضل فتحات الحاجب الضيقة مع سرعة تعريض أطول لأن هذا يجعل الصور حادة نوعًا ..

قالت (إليانور) وهى تلتصق بها :

ـ « فلنسرع .. إن المكان مخيف بحق .. »

ابتسمت (ماجى) فى رفق .. هى تحب هذه اللحظات حين يشعرون بالخوف ويلتصقون بها كقطط صغيرة عندها تشعر بأنها (هرقل) ذاته ..

كليك .. كليك .. كليك .. ثم :

ـ « فلنغير الزاوية .. »

وحملت الحامل على كتفها وباليد الأخرى أمسكت بيد الصغيرة الدافئة فى قفازها الصوفى ، وراحت تشق طريقها فى حذر نحو الغرب محاولة ألا تتعثر فى الحفر ..

آه ! من هذه الزاوية ترى المقابر بوضوح تام ..

الشواهد الباردة بما عليها من كلمات صار من العسير قراءتها .. وما بقى عليها من زهور جفت أو ذرتها الريح .. تستحم فى الضوء الفضى المصفر قليلاً ..

قشعريرة زحفت على سلسلة ظهر (ماجى) لكنها تجاهلتها .. وبدأت تضبط مجال الرؤية ..

ـ « أنا خائفة .. »

ـ « ليس هنا سوى أحجار .. لاتتوقعى أن تنفتح القبور ويمد لنا الموتى أيديهم الباردة كى ... »

وهوت على ساعد الصغيرة بأناملها تعتصره ، ورسمت على وجهها نظرة مخيفة ضاحكة ، فأطلقت الفتاة صرخة هلع :

- « (ماجىىى) !! أنا لم أر إنسانًا أخبث منك ولا أشر ! »

- « ستقابلينه يا عزيزتى .. ستقابلينه .. إنه نائم فى مكان ما من إنجلترا الآن .. ولسوف يكون زوجك بعد عشرة أعوام ! »

ولسبب ما فكرت فى (رفعت) .. هل لأن الكلام كان عن الزواج ؟ أم هو مشهد المقابر الرهيب ؟ أم هى سيرة الخبث والشر ؟ لا أعرف طبعًا ..

إنه قادم خلال أيام ، ولسوف يبهرها بالمزيد من الضمور الجسدى والأمراض المزمنة .. مع هذا الرجل يمر العام الواحد كأنه خمسة .. ولن تدهش هذه المرة لو وجدت أنه فقد عينًا أو ساقًا أو أصيب بالشلل الرعاش .. فقط ستدهش لو مات ، لأنه برهن على قدرة خارقة فى أن يظل حيًا برغم هذا كله ..

كليك .. كليك .. كليك .. ثم .. كليك ..

ولابد من كليك هنا أيضًا ..

لو أن الصور خرجت كما تراها الآن فهذه أروع مجموعة التقطتها منذ عام ..

هنا هتفت الطفلة وهى تلتصق بها أكثر :

- « هناك أشخاص ! »

بالفعل كان هناك أشخاص ..

لاتستطيع (ماجى) تحديد العدد بالضبط ، لكنه يقترب من الخمسة أو الستة .. لمزيد من الدقة اللغوية خمس أو ست ، لأن كل شىء يوحى بأن هذه أشباح نساء ..

ثمة شىء ما لايريح فى هاته النسوة ..

إنهن مسربلات فى عباءات فضفاضة وشعورهن ثائرة .. يمكنها أن ترى أن شعورهن ثائرة برغم أنهن على بعد خمسين مترًا على الأقل ..

إنهن يمشين وسط المقابر .. ما الذى يدفع مجموعة من النسوة كى يمشين وسط المقابر ليلاً ؟

وبشكل غريزى مدت يدها الهشة تضعها على فم الطفلة ، وغاصت فى موضعها أكثر .. لحسن الحظ أنها تقف خلف شاهد حجرى يسمح لها ببعض الاختباء لا كله ..

النسوة يتجهن إلى مكان معين فى المقبرة .. يقفن فيما يشبه الدائرة .. إنهن يرسمن شيئاً على الأرض .. ثم يلتففن ويشبكن أيديهن صانعات دائرة بأجسادهن ..

إنهن يدرن كأنهن يلعبن لعبة أطفال .. تزداد السرعة .. وطيلة الوقت يرددن شيئا ما لا يمكن أن تتبينه .. لكنك تشعر به ..

هنا فقط خرجت (ماجى) من شبه الغيبوبة التى شلت حركتها ، وخطر لها أن ماتراه مهم جداً .. وعلى الفور أخرجت عدسة (الزوم) وقامت بتثبيتها إلى الكاميرا ، وبدأت تلتقط بعض الصور لهذا الجمع ...

شهيق الطفلة يتعالى من فرط إثارة وتوتر .. ولاشك أنها توشك على الفرار فى أية لحظة ..

النسوة يقمن الآن بإخراج أقفاص صغيرة .. يخرجن ما بها .. الآن فقط تفهم (ماجى) أن هذه طقوس سحرية .. يمكنها أن ترى بعين الخيال أن ما رسم على الأرض لن يكون إلا نجمة خماسية .. يمكنها أن ترى بعين الخيال أن ما يخرجنه من تلك الأقفاص حيوانات صغيرة يقمن بذبحها ..

ثم بدأ الجنون .. فعلاً الجنون ..

رقصات مجنونة لا يمكن وصفها لا بد أن قبائل (البوشمان) لم تقم بمثلها حول النار ليلاً .. تلك الضحكات الرفيعة الماجنة التى تضحك بها الساحرات فى السينما ..

صوت غراب يدوى من بعيد ، فتزداد حماسة الراقصات ..

ترى هل تفهم الصغيرة معنى هذا الذى تراه ؟ على الأرجح لا .. ولعل هذا من حسن الطالع .. هى فقط خائفة وهذا من حقها ..

ولكن ما هذا ؟ هل ثمة قبر يفتح ببطء ؟

هل هذا الذى يخرج منه دخان فعلاً ؟

لماذا تصلبت النسوة وكففن عن الاحتفال الصاخب ؟

وقررت (ماجى) أن الوقت قد حان كى تجمع حاجياتها وتفر .. لقد رأت الكثير .. هذا المكان يحتاج إلى زيارة صباحية لرؤية ما كانت هاته النسوة يفعلنه ..

لكن الآن لا بد من الـ ...

ضربة فى مؤخرة رأسها فأطلقت صرخة عالية واستدارت .. فقط لترى ذلك الغراب الكريه يفر مبتعدًا .. لاشىء يخيف .. إن الغربان تهاجم الأجسام اللامعة ، وقد كانت الكاميرا تلمع فى ضوء القمر ..

لكن المشكلة هى أن النسوة سمعن الصرخة ..

إنهن قد تصلبن ..

إنهن يتحركن نحو مصدر الصوت ..

وهنا فقط صرخت (ماجى) فى الطفلة :

ـ «فلنفرّيا (إليانور) !! »

ولم تكن الطفلة بحاجة إلى شرح ، لأنها كانت قد انفجرت فى البكاء الهستيرى ..

جذبتها (ماجى) من يدها وانطلقتا تركضان وسط الأراضى الوعرة .. حامل الكاميرا فى يد والطفلة فى يد .. حفر .. حفر .. وهدة .. حفرة .. حفرة .. صخرة ..

ولم تجسر قط على النظر إلى الوراء .. لسوف ينتابها الهلع .. لسوف تتعثر ..

لا بد من فرار سريع بلا تردد ..

وعندما تصل إلى الخان ، سيكون هذا الكابوس قد انتهى ..

لكن هذه كانت ـ كما نعرف جميعًا ـ هى البداية ..

* * *

١ـ لقاء تأخر ..

أنهيت أعمال المؤتمر وصرت حرًا ..

لا أزعم هنا أننى أمقت المؤتمرات .. بشكل ما أنا أعتبر نفسى خبير مؤتمرات متمرسًا .. ولا أخفى سرًا إذا قلت إن ملاحقة المؤتمرات عبر العالم هى المتعة الوحيدة لى فى الحياة .. أنت تسمع أفكارًا جديدة وتعرف أشياء جديدة وترى أناسًا جديدين طيلة الوقت .. تصور شيئًا كهذا بالنسبة لشخص ملول مثلى .. الأمر نوع من المهرجانات العلمية ، والأهم أنك لا تتكلف شيئًا تقريبًا .. لأننى أدعى إلى أكثر هذه المؤتمرات ، كأنهم يحتاجون دومًا إلى تعكير مزاجهم بوجود (رفعت إسماعيل) الكئيب ..

طبعًا كانت لمؤتمر (دوبلين) هذا مزية مهمة ، هى أننى على أرض (ماجى) .. ومعنى هذا أننى سأقابلها بالتأكيد .. وقد عرفت أنها ستكون فى (أيرلندا) فى هذا

الوقت بالذات .. وحددت لى بلدة (ليفورد) فى (دونيجال) للقاء .. لم أكن أعرف هذا المكان طبعًا لأننى لست ملكة بريطانيا ، لكنى عرفت أنها تقع فى أقصى شمال البلاد ، وتطل على المحيط الأطلسى .. كانت مع (ماجى) طفلة هى قريبتها وقد ضايقنى هذا نوعًا ، لأننى لا أطيق الأطفال ولا الزهور ولا الربيع كما تعرفون عنى ، لكن (ماجى) تستحق تضحية صغيرة كهذه ..

وجاء اليوم الموعود ..

كانت بانتظارى حين بلغت البلدة .. (ماجى) الرقيقة التى تمشى على العشب دون أن تثنى منه عودًا واحدًا ..

(رفعت) الملول العصبى غريب الأطوار كان يملك عالمًا لم يخط فيه بشرى من قبل .. أرض (اللابشر) لو صح التعبير .. فقط واحدة استطاعت أن تخطو فوق هذه الأرض .. تغزوها .. تغرس فوقها علمها الخاص .. ومنذ ذلك اليوم صرت رجل امرأة واحدة ..

أتشاجر .. أفرح .. أفكر .. أخاف .. أطمئن .. لكنها هناك ..

أسافر .. أعود .. أنام .. أصحو .. لكنها هناك ..

وكما يقول (صالح جودت) : فأنت المنتهى وهنا المصبُ ..

هل كان هذا فى صالحى ؟ الحقيقة أننى لا أدرى بالضبط .. هذا الحب العتيد الذى أحسبه ولد قبل أن أولد .. ربما بينما المصريون القدماء ينحتون مسلاتهم .. ربما بينما (التى ركس) العملاق يتحرش بـ (برونتوسـاوروس) وديع قرب المستنقع .. ربما بينما القمر يولد من المحيط الهادى ..

هذا الحب قد جعلنى عمليًا عاجزًا تمامًا عن ممارسة حياة طبيعية .. جعلنى ذئبًا متوحدًا يحيا هنا فى مصر ، بينما قلبه ينبض هناك فى (إنفرنسشاير) .. ولعمرى ما أطول تلك الدورة الدموية !

لم تتغير .. حقًا لم تتغير .. إن الأيام تعاملها معاملة غير عادلة .. فبينما تترك كل دقيقة ندبة لاتمحى على

وجهى ، تلتف الأعوام حولها تزيل الغبار المتراكمْ .. قرر الزمن أن يضع قناعًا ويدخل غرفة الجراحة ليصير جراح تجميل خصوصيًا لها ..

هذه هى (ماجى) .. خمسة وخمسون كيلوجرامًا من السحر والرقة والرقى والمرح .. حساسة كزناد تفجير لغم نازى مدفون تحت رمال العلمين .. كتلة من الأعصاب المرهفة مغطاة بالجلد ..

وأنا ...

أهيم بها ...

* * *

قالت لى حين رأتنى :

ـ « للأبد ؟ »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « ستكون ملكى للأبد ؟ »

ـ « وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى ... »

وتوقعت أن أكمل العبارة الأخيرة ، لكن الروتين هو الروتين .. لقد خنقتنى التأثر كالعادة ..

قالت ضاحكة وهى تقدم لى الطفلة :

- « (إليانور ماكدوجلاس) .. المفترض أنها قريبتى لكنها فى الحقيقة شريكتى .. »

انحنيت وصافحت الطفلة بشكل رسمى مبالغ فيه ، وتأملت ملامحها .. بارعة الجمال كما لابد أن يكون كل ما يمتّ لـ (ماجى) .. هذا باستثنائى طبعًا مادمت أعتبر أننى أمتّ لها ..

- « تشرفنا أيتها الآنسة .. هل سبق لى أن حظيت بشرف معرفتك ؟ »

نظرت لى فى فضول بعينيها الزرقاوين الصافيتين وقالت :

- « بالواقع ... لا .. »

كأنه من الممكن أن ينسى المرء (رفعت إسماعيل) بسهولة !

كان الخان الذى اختارته لنا مريحًا له ذات الطابع البريطانى - بل الأيرلندى طبعًا - الودود الذى يذكرك بقصص (أجاثا كريستى) .. كانت قد اتخذت هى والطفلة غرفة .. واختارت لى غرفة جميلة لا تطل على شىء على الإطلاق لأنها تعرف ذوقى ..

قالت للمسز (باتكروفت) صاحبة الخان وهى تقدمنى :

- « هذا هو البروفسور (إسماعيل) الذى حجزت له الغرفة رقم (١٢) .. مسز (باتكروفت) .. »

هززت رأسى متظاهرًا بالرقى ، وقلت :

- « تشرفنا .. »

كانت امرأة فى المائتين من عمرها ، لها شعر أبيض ناعم عقصته بعنف بتلك الطريقة التى توحى لك بأن فمها صار فى موضع أعلى وأنها لن تستطيع إغلاق جفنيها للأبد .. وكان لها وجه لطيف ملىء بالتجاعيد لكن فيه شيئًا من الخبث بالتأكيد ..

قالت لى (ماجى) :

- « يمكنك أن تذهب لغرفتك وتتأهب للعشاء ، أو نجلس هنا نتحدث .. »

وكان اللوبى لهذا الخان شيئًا أقرب إلى قاعة الجلوس فى البنسيونات الصغيرة .. جو حميم دافئ .. ثمة نار مشتعلة فى مدفأة ، ومجموعة من الرجال لا يبدو عليهم أنهم من طبقات المجتمع الراقية ، لكنهم ليسوا كذلك من طبقة العمال .. كانوا يشربون ويدخنون ويرمقوننا فى فضول ..

قلت لـ (ماجى) إننى أفضل الجلوس قليلاً .. فهزت رأسها راضية .. الغريب أن (ماجى) هى الشخص الوحيد فى الكون الذى أعرف جيدًا أنه يحب وجودى ويستمتع به .. فأنا أبصر روحها كما أبصر روحى أنا .. إن أختى تحبنى بالتأكيد لكننى أشكل لها ظاهرة تعجز عن فهمها ، ولاشك أن وجودى يسبب لها توترًا غريبًا .. (عزت) ؟ من المجنون الذى يزعم أن (عزت) يحب وجودى ؟ إننى أجلب له المصائب

فى كل لحظة .. لكننى لن أبالغ .. بالتأكيد هناك أشخاص كثيرون يحبون وجودى ، لكننى لا أستطيع أن أزعم هذا بالثقة التى أتكلم بها عن (ماجى) ..

قالت لى باسمة وقد أسندت ذقنها على قبضتها ، وراح كشافاها الأزرقان يتفحصاننى :

- « هممم ؟ ماذا فعل الزمان بك ؟ هل فقدت أشياء أو اكتسبت أشياء ؟»

- « أضفت أمراض البروستاتا وتصلب عدسة العين وحصوة كلية صغيرة إلى قائمة أمراضى .. بينما فقدت إصبعين من قدمى .. »

تقلص وجهها ذعرًا وهتفت :

- « ماذا ؟ إصبعين ؟ متى ؟ »

قلت فى لا مبالاة وأنا أحتسى الشيكولاتة الساخنة التى طلبتها لنا :

- « ليلة فى ثلاجة الموتى مع وباء يشبه التيفوس .. قضمة صقيع .. أنت تفهمين هذه الأمور ! »

نظرت لى فى هلع ثم ارتجفت أهدابها بضحكة تحاول أن تكتمها .. كانت ترغب فى التأثر لكن لامبالاتى جعلت الأمر أقرب إلى دعابة :

- « أنت لن تتغير ! »

- « وأنت ؟ هل تغيرت ؟ »

قالت وهى تداعب شعر الصغيرة :

- « بمناسبة حضورك .. عندى لك قصة مثيرة حدثت منذ ثلاثة أيام ، وأعتقد أنها تنتمى إلى عالمك .. »

- « هاتها .. »

وهكذا بدأت (ماجى) تحكى لى القصة التى يعرفها الجميع الآن باستثنائى طبعًا ...

- « كنت راغبة فى تصوير الكنيـــ...... »

★ ★ ★

- « .. حتى وصلنا إلى الخان وعرفنا أننا فى أمان .. »

انتهت القصة ، بينما أنا أصغى باهتمام .. وكانت الطفلة بدورها تصغى وقد بدا عليها نوع من الفخر لأنها شاركت فى هذه المغامرة الليلية ..

سألت (ماجى) فى توتر :

- « وطبعًا عدت فى الصباح إلى نفس البقعة ؟ »

- « ولم أجد شيئًا غريبًا .. لقد تم تنظيف البقعة بعناية .. »

- « ولم تتخيلى ما حدث ؟ »

- « أوه .. إن ما معى من جرعات عقار الهلوسة قد انتهى للأسف .. »

نظرت فى عينها بثبات وقلت :

- « وهل فهمت الآن أنك رأيت اجتماعًا للسحرة ؟ يقول الأوروبيون إن الغراب الذى يحضر هذه الاجتماعات هو الشيطان ذاته ! »

قالت فى ضيق :

- « (رفعت) .. كف عن هذا السخف .. نحن فى القرن العشرين يا بنى .. »

ـ « على قدر علمى لم يتوقف الإنسان عن ممارسة السحر منذ فجر التاريخ حتى هذه اللحظة .. لاحظى عدد الجماعات السرية Cult التى تمارس طقوسًا سحرية فى أمريكا حتى اليوم .. لاحظى هذا الجمع الغريب بين ذروة التقدم التكنولوجى وممارسة السحر .. لايوجد مايمنع وكل خبراتى فى الحياة تؤكد هذا .. سواء كان هؤلاء يمزحون أو يأخذون الأمور بجدية .. »

ثم رحت أقدم محاضرة قصيرة عن الموضوع :

ـ « كان الاعتقاد السائد فى القرون الوسطى هو أن السحرة كائنات اجتماعية جدًا .. ولهذا يجتمعون فى أطراف السهول أو الأحراش الموحشة .. ثمة سمعة سيئة بالذات لجبال (هرتز) شمال ألمانيا .. وتظهر الرسوم أن هذه الاحتفالات كانت استعراضًا لأحدث ماوصلت إليه التكنولوجيا فى التنكر وتغيير الشكل .. بعض السحرة كانوا يحضرون على أشكال

حيوانات غريبة .. وبالطبع لابد من عصى المكانس التى هى بمثابة بطاقة الدعوة لتلك الحفلات .. ويقولون إن الشيطان كان يحضر هذه الاجتماعات على شكل قط أو ـ على الأرجح ـ غراب .. وكان إثبات أن امرأة ما حضرت اجتماعًا كهذا كفيلاً بحرقها فى غالبية الأحوال .. لقد أحرق رجل يدعى (جودفرى) عام ١٦١١ لأنه حضر واحدًا من هذه الاجتماعات دون أن يشارك فيه .. وأحرقت طفلة تدعى (كاترين ناجوى) فى فرنسا لأنها وصفت شيئًا شبيهًا بهذا .. »

هنا نظرت إلى الطفلة وتذكرت أين أنا فابتلعت كلامى .. الحقيقة أنها الآن مؤهلة تمامًا للعقاب لو كانت فى القرون الوسطى ..

واصلت كلامى :

ـ « ما رأيته أنت فى المقبرة كان اجتماع سحرة .. لاشك فى هذا .. »

قالت (ماجى) باسمة :

ـ « على كل حال لدى ما يثبت أننى لم أكن واهمة .. لقد قمت بتحميض الصور وهى عندى .. »

ـ « جميل .. وهل أبدى ستوديو التحميض إعجابه بها ؟ »

ـ « لا أحد يعلق على هذا .. وعلى كل حال لا يمكن فهم ما تدور حوله الصور إلا لو كنت تعرف ما تبحث عنه .. »

ثم نهضت وقالت :

ـ « سأحضرها لك .. »

ـ « بشرط أن يتم ذلك خلسة .. لا أحب أن يلتف حولنا خمسون متحمسًا .. »

ـ « طبعًا .. »

وانطلقت تعدو بخفتها المعهودة نحو حجرتها .. لن أصدق أبدًا أن هذه الطفلة المرحة تجاوزت الأربعين .. إلا لو صدقت أننى فى العشرين من عمرى ..

هنا ـ ما إن ابتعدت (ماجى) ـ فوجئت بالطفلة الأخرى تهتف بى :

ـ « يا للروعة !! »

ونظرت إلى حيث أشارت ..

وكان ما رأيته يخطف الأنفاس ..

* * *

٢ـ حسناء سوداء ..

وقفت الفتاة ذات الثياب السوداء أمام مسز (بانكروفت) مستندة إلى (الكاونتر) ..

كل شىء فيها كان أسود مثل د. (لوسيفر) .. الشعر الأسود المنسدل حتى الكتفين شديد البريق، مما يذكرنى بالسطوح المعدنية .. المعطف الأسود الطويل .. التنورة السوداء .. الجوربان الأسودان .. الحذاء طويل الرقبة الذى تتدلى سلسلة ذهبية على طرفه العلوى .. ثياب غالية الثمن توحى بأنها من أصل راق لاشك فيه .. ربما من سلالة إحدى الأسر المالكة فى أوروبا .. إنهم تحت كل حجر هنا ..

كانت جوارها على الأرض حقيبة، وكان هناك سائق يلبس ثيابًا لا أستطيع شراءها ولو ادخرت راتبى لعشرة أعوام ..

سألها باحترام وبتلك اللكنة الأوكسفوردية الخاصة بأساتذة الجامعات :

ـ « هل ترغب الآنسة فى شىء آخر ؟ »

قالت بصوت خشن قليلاً قوى النبرات :

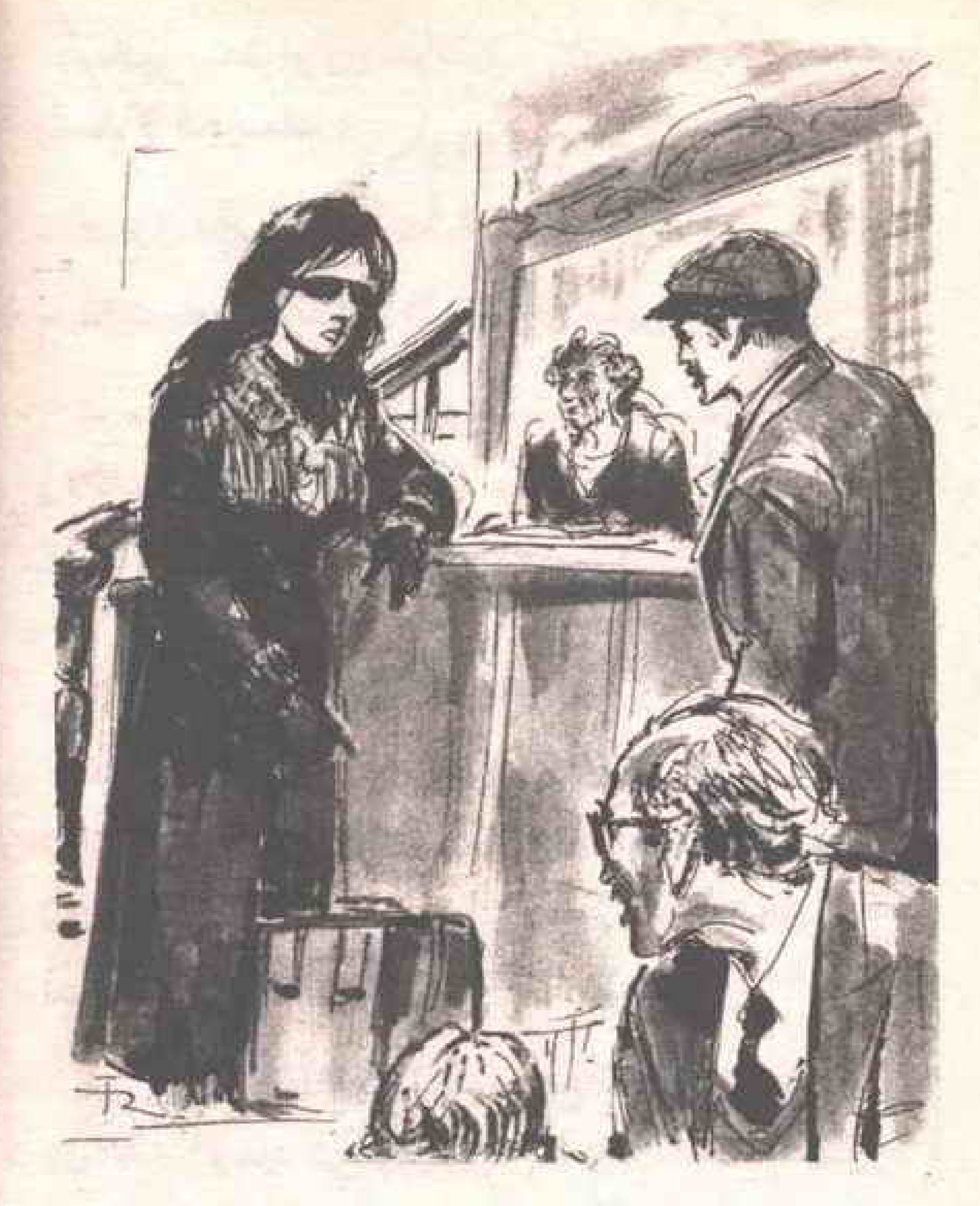
ـ « لاشىء يا (إدموند) .. يمكنك الانصراف ولاتنس الموعد .. »

ثم استدارت إلى مسز (بانكروفت) وقالت :

ـ « بخصوص الغرفة التى حجزتها هاتفيًّا .. »

كان الأمر الآن أقوى من تحمل العجوز البريطانية الفضولية .. وللحظات بدا أن الأسئلة تزدحم فى ذهنها بحيث لاتعرف من أين تبدأ .. الحقيقة أن أسئلة مماثلة كانت تحتشد فى ذهنى ..

من هذه الحسناء ؟ ما الذى يدفع مثلها إلى هذا الخان ؟ هل لأنه الوحيد فى (ليفورد) ؟ وما أهمية (ليفورد) أصلاً ؟ ليست مكانًا سياحيًّا مهمًا وبالتأكيد لا يوجد



قالت بصوت خشن قليلاً قوى النبرات :
ـ «لا شىء يا (إدموند) .. يمكنك الانصراف ولا تنس الموعد ..» .

كثيرون من هواة القلاع هنا .. أنت تفهمنى .. طراز هذه الحسناء الثرية تجده حيث تذهب الحسناوات الثريات .. أى مكان غير هذا بالتأكيد ..

ثم إن الحسناء أخرجت بعض الأوراق وقالت :

ـ « مس (بلاك) .. (لورين بلاك) .. من (شيفيلد) .. »

ثم تهجأت الاسم بصوت عال :

ـ « .. L .. O .. R .. E .. A .. N .. E »

إذن المرأة كتبت الاسم Lorine كما كنت سأفعل أنا نفسى .. لماذا لاتنطقه الفتاة (لوريان) كما أتوقع ؟

ثم دارت محادثة لم أستوعب منها الكثير ، لأننى كنت أرمق الجالسين فى المكان والذين أرهفوا جميعًا السمع لالتقاط ما يمكن سماعه .. الحقيقة أن دخول الفتاة أحدث توترًا ودهشة لايختلفان عما لو كان وشق الاستبس هو الذى دخل ..

كان هناك عجوز راح يمضغ غليونه .. وشاب التهم المنديل الورقى بدلاً من قطعة الحلوى فى طبقه ..

وامرأة اتسعت عيناها حتى لاتفوتها شاردة أو واردة .. فضول .. فضول .. وهو مايقول لى إننى لست مخطئًا فى دهشتى .. هذه البلدة لاترى الغرباء ، فإن رأتهم كانوا مثل (ماجى) التى لاتشعر أبدًا بأنها غريبة عنك ، وأنا بمظهرى الذى يقول بوضوح : لاخطر منه .. إنه على الأرجح سيموت خلال دقائق ..

وجاء صوت العجوز :

ـ « كم من الوقت تنوين الإقامة هنا ؟ »

ـ « ربما بقيت أسبوعين .. لا أعرف بالضبط .. على كل حال سيعود سائقى بعد أسبوعين .. »

وهكذا جاء الخادم (ويليام) ليحمل حقيبتها .. وأصدرت له المديرة الأمر : رقم (١٣) .. هذا الخان إذن ليس ممن يحذفون الرقم ١٣ من أرقام الغرف منعًا للتشاؤم .. وفى ثقة مشت الحسناء وراءه بينما صوت كعبى الحذاء يحدثان ذلك الصوت المنتظم : تيك .. توك .. تيك .. توك ..

أخيرًا عاد مستوى الأدرينالين فى دماء الجالسين إلى مستواه الطبيعى ..

سألتنى الصغيرة فى خبث :

ـ « هى أعجبتك كثيرًا .. أليس كذلك ؟ »

انحشر شىء ما فى حنجرتى ، فعالجت ربطة العنق لأريح رقبتى ، وقلت :

ـ « بلى .. بل نعم .. لم تعجبنى .. إن .. ما الذى يدفعك لقول كهذا ؟ »

ـ « لم ترفع عينيك عنها ثانية ! »

وهو كذب واضح وافتراء لأننى قضيت أكثر الوقت أراقب وجوه الجالسين .. لكننى قلت لها :

ـ « إنها غريبة على هذا المكان .. هذا كل شىء .. »

هنا كانت (ماجى) قد عادت حاملة مظروفًا .. وجذبت مقعدها لتجلس ثم مدت يدها تحت المنضدة وناولتنى الصور ..

رحت أتفحصها من تحت المنضدة .. حقًا كانت صورًا شديدة الإبهام .. هناك نسوة فى أوضاع راقصة .. ومنظرهن عامة ليس مما يبعث الطمأنينة فى النفس .. لكن تأثير عدسة الزوم قاتل ، مع فترة التعريض الكبيرة التى جعلت الاهتزازات كثيرة ..

أعدت لها المظروف وقلت هامسًا :

ـ « لايوجد مايثير الريبة فعلاً .. لكن ربما كان من الأفضل ألايعرف أحد بأمرها .. »

تدخلت الطفلة ـ كغراب البين ـ لتعلن أننى كنت معجبًا بالزائرة الحسناء .. وطبعًا كان لابد أن تعرف منى (ماجى) كل شىء عن تلك الزائرة الحسناء .. حكيت لها كل شىء فقالت :

ـ « هذا غريب .. لكنى مسرورة لأن شيئًا من الحياة مازال ينبض فيك .. إن كل ماتعانيه من أمراض لايمنعك من أن تكون وغدًا .. »

برغم هذا سررت للعصبية التى تكلمت بها .. هذا

يعنى أن كل شىء على مايرام .. وما لاتفهمه هذه الحمقاء أننى ـ فعلاً ـ أراقب الناس فى فضول كمن يراقب نوعًا غريبًا من البكتريا تحت مجهر .. لاانفعالات ولا عواطف من أى نوع .. إلا لو حسبنا أن عالم البكتريا إذ يبتسم وهو ينظر فى مجهره ، إنما يغازل العصويات التى يراها !

قلت لـ (ماجى) وأنا أنهض :

ـ « الآن أعتقد أننى فى أمس الحاجة إلى قسط من الراحة .. غدًا نبدأ استكشاف هذه البلدة .. »

هزت رأسها موافقة .. وابتسمت لى فى رقة وهى تضم الطفلة إلى صدرها ..

* * *

تقع غرفتى رقم (١٢) فى الطابق الثانى .. ويلاحظ من يجيدون الرياضيات منكم أن الرقم (١٢) ملاصق للرقم (١٣) .. لمزيد من الدقة يواجهه .. إذن جارتى هنا هى الأخت (لورين بلاك) ... أما (ماجى) فغرفتها رقم (٩) فى الطابق ذاته ..

فتحت الغرفة واتجهت إلى النافذة كعادتى ..

كانت موصدة بحيث لايمكن فتح الزجاج الذى تغطيه ستارة رقيقة .. لكنى كنت أستطيع أن أرى من هذا الموضع أجمل مساحة من الفراغ رأيتها فى حياتى.. لامعالم علىِ الإطلاق ما عدا مرجًا واسعًا يمتد إلى ماشاء الله .. إن (ماجى) تعرف ذوقى بالضبط ..

كانت التدفئة تعمل على ما يرام ، فبدأت ارتداء منامتى ووضعت حاجياتى فى الخزانة .. الحق أننى مرهق فعلاً ..

طرقات على الباب .. هذا هو (ويليام) طبعًا فلابأس أن يرانى بالمنامة ..

فتحت الباب فأصابنى الهلع لأن القادم كان المس (بلاك) بالذات .. أولاً أصابنى الخجل من مظهرى ، ثانيًا لا أعرف بالضبط كنه الشىء المخيف فى هذه الفتاة حين تراها عن قرب .. إنها جميلة .. ربما هى جميلة أكثر من اللازم أو المقبول .. وهى فى هذا

تشبه جرعة زائدة من السكر تصيبك باضطراب الهضم وربما الغثيان .. ملعقة العسل الأبيض الكبيرة التى كانت أمك ترغمك على شربها برغم أنها (تشحط) فى حلقك .. وقدرت أنها فى العشرينات من عمرها ، وأنها على شىء لا يخفى من القسوة ..

قالت بصوتها الخشن العميق :

- « معذرة على التطفل يا سيدى .. لكن الخادم لايرد على الجرس .. كنت بحاجة إلى عون .. »

- « نعم .. نعم .. أى شىء .. »

- « نافذة الغرفة غير قابلة للفتح .. كنت بحاجة إلى بعض الهواء النقى .. »

- « فى هذا البرد ؟ لكن .. ليكن .. لحظة حتى أرتدى الروب .. »

وطبعًا خجلت من أن أقول لها إننى عاجز عن فتح نافذة حجرتى ذاتها .. الرجال لايرفضون طلبات من هذا النوع لأنها من صميم كرامتهم ..

لحقت بها فى حجرتها وكانت نسخة طبق الأصل من حجرتى أنا .. اتجهت للنافذة وأمسكت بعارضتها ورفعت لأعلى ، وهوب ! تدفق الهواء البارد ليلسع صدرى ..

كانت غير موصدة أصلاً .. لابأس .. لقد أنقذنا كرامتنا الرجولية ولو بنصر مزيف ..

قالت لى فى امتنان :

ـ « شكرًا جزيلاً .. أنا أقدر هذا .. بالمناسبة .. لاتبدو لى من القارة أصلاً .. لنقل إن ملامحك شرق أوسطية .. »

اعتدت دومًا أن أبدو أجنبيًا فى كل مكان .. فى إفريقيا أنا أبيض جدًا ، وفى أوروبا أنا أسمر جدًا ، وفى آسيا أنا أحمر جدًا .. على كل حال هذه الفتاة تتمتع بالملاحظة الدقيقة ..

ـ « أنا مصرى .. دكتور (إسماعيل) .. (رفعت إسماعيل) .. »

ـ « (لورين بلاك) .. مس .. كاتبة قصصية محدودة الشهرة .. من (شيفلد) .. »

هكذا بدأت القصة تبدو على شىء من المنطق .. لايزور هذه الناحية إلا مجنون مثلى و(ماجى) أو كاتب قصصى يريد أن يعيش بيئة قصته .. لعلها تكتب عن قلاع (أيرلندا) .. لقد تعودت أشياء كهذه من الكاتبات البريطانيات ، حتى إننى أتخيل أن (أجاثا كريستى) أو (دافنى دوموربيه) لم تجلسا قط إلى مكتب فى داريهما .. طيلة الوقت هما فى فنادق فى كل ركن من العالم ..

ـ « أى نوع من القصص تكتبين ؟ »

ـ « أشباح !! لاتنس أنك فى بريطانيا حيث أحفاد (هنرى جيمس) .. هنا تجد الرعب البريطانى الذى يلمح بالخطر لكنك لاتراه .. يصفونه بأنه (رعب الأشياء التى تتحرك خارج مجال بصرك .. فإذا أدرت وجهك نحوها لم ترها) .. »

كاتبة رعب فى غرفة جوار (رفعت إسماعيل) !
لو تعرف هذه الفتاة أى كنز يقف أمامها الآن ! رعب الأشياء التى تتحرك خارج مجال بصرك .. يا سلام ! فماذا عن رعب الأشياء التى تقف أمامك ، وتعرف عنوان دارك ، وتمشى فى شقتك ليلاً وتقف جوار فراشك ؟

على كل حال لا أنكر أن اسمها له رنين مرعب .. ويبدو أن هذا شرط مهم لنجاح كتّاب الرعب .

تمنيت لها ليلة طيبة وعدت إلى غرفتى ..

ولم يفتنى قبل أن أغلق باب غرفتى أن ألاحظ أن موضوع النافذة هذا كان ذريعة .. لو أن طفلاً مد يده لفتحها ..

هذه الفتاة أرادت أن تفتح اتصالاً معى .. فلماذا ؟

أى رجل آخر سيقول إن سحره الرجولى بدأ يعمل .. أما أنا فأعرف نفسى جيدًا ..

هناك سر غامض وراء هذه الفتاة .. غامض وآمل ألا يكون مخيفًا كذلك ..

* * *

٣ـ أحداث ليلية ..

كنت قد غبت تمامًا فى ملكوت النوم ، حين تصير غير ذى حول ولا قوة .. إنه الموت بكل تفاصيله ولا شىء إلا إرادة الله التى تجعلنى أفتح عينى بعد هذا كله وأتثاءب ، بدلاً من أن أبدأ فى التصلب الرمى فالتعفن ..

طرقات على الباب .. طرقات .. طرقات ..

بشكل ما دخلت هذه الطرقات إلى الحلم كعادة أحلام (المنبه) ، ثم أفقت فهرعت إلى الباب .. الخان يحترق بالتأكيد ، والدم كله احتشد فى قدمى فترنحت وقد اسود العالم للحظة ..

فى النهاية وجدت المفتاح ففتحت ، وكان من رأيت هو (ماجى) والطفلة .. كلاهما ممتقع الوجه منكوش الشعر يرتدى الروب ..

ـ « كم الساعة الآن ؟ »

صاحت (ماجى) دون أن تنتظر حتى أعرف الإجابة :

ـ « (رفعت) ! لقد سُرقت غرفتى ! »

يا فتاح يا عليم .. يا رزاق يا كريم ! لا أحد يريد أن يتركنى أسترد توازنى .. وهكذا وجدت نفسى أضع الروب على كتفى ، وأثبت العوينات ، وألحق بها فى غرفتها ...

كانت باردة كثلاجة ـ الغرفة لا (ماجى) ـ برغم أن جهاز التدفئة يعمل جيدًا .. ولم أستطع أن ألاحظ شيئًا غير عادى أو منفرًا .. لكنها لم تحك قصتها بعد .. لهذا واصلت الكلام وهى تمرر يدها فى شعر الطفلة الأشقر حتى كادت تصيبها بالصلع :

ـ « أنت تتساءل لم النافذة مفتوحة .. أنا أيضًا أتساءل ! لقد نمت مع (إليانور) بعد رحيلك بساعة .. وكانت النافذة موصدة .. هل تفهم ؟ موصدة ! ثم صحوت شاعرة بأننى موشكة على التجمد .. وجدت أن النافذة مفتوحة .. ووجدت أن هناك من عبث فى

حاجياتى .. لم يختف مال ولا حلى .. فقط الصور اللعينة وكل ما كان معى من أفلام تم تحميضها ! »

رحت أحك رأسى محاولاً أن أبعث بعض النشاط فى كتلة الهلام تلك :

ـ « غريب .. وهل .. الكاميرا ؟ »

ـ « موجودة !! »

ـ « هذا غريب .. »

وأضفت :

ـ « هلا أطلقت سراح الطفلة ؟ إن شعرها كله قد انتصب بالكهرباء الاستاتيكية .. لسوف تنبعث منها الصواعق حالاً .. »

واتجهت إلى النافذة فعالجتها كما فعلت مع تلك التى فى غرفة الفتاة .. واختلست نظرة إلى الخارج .. هل هذا الواقف على الشجرة هناك غراب ؟ لا .. هذه أوهام .. هناك إفريز يمر تحت النافذة بالضبط .. فهمت .. إفريز يمر تحت كل نوافذ الطابق .. النوافذ ذات الرقم الفردى مثل ٧ و ٩ و ١١ و ١٣ و ١٥ ..

من هذا الطريق جاء المتسلل الذى لابد أنه رشيق كالفراشة .. إن نوم (ماجى) ليس عميقًا على الإطلاق ، ولايستطيع التسلل جوار فراشها إلا فراشة ..

أغلقت النافذة وكانت لينة فعلاً سهلة الإغلاق ..

ثم جلست على طرف الفراش ورحت أفكر قليلاً ..

قلت لها وأنا أتسلى بهز خفى المتدلى من قدمى التى وضعتها على ركبتى :

- « الأمر واضح ولن نضيع الكثير من الوقت فى فهمه .. الصور كانت تمثل خطرًا بالنسبة للبعض فى هذه البلدة .. إنها الدليل على أنهم كانوا فى المقبرة فى تلك الليلة .. هذا سلوك من يريد الصور بأى ثمن .. »

تربعت على الأرض المغطاة بالموكيت ، وحركت خصلات شعرها الأشقر مفكرة ثم قالت :

- « لكن الصور لم تكن بهذا الوضوح .. »

- « بالنسبة لنا .. لكن لو أن أحد أهالى البلدة رآها

لهتف : ويلى ! هذه (جين) !! يا للغرابة ! هذه (مارى) ! إن من يعرف تلك الوجوه من قبل سيتعرفها على الفور فى الصور .. »

- « ومن قال لهم إن هذا الفيلم معى ؟ »

- « أولاً هن رأين فتاة ومعها طفلة تركضان .. والفتاة تحمل حامل كاميرا .. ماكل هذا الذكاء ؟ لاحظى أن حامل الكاميرا يستخدم غالبًا لحمل كاميرا ، ويندر أن يستعمل لتنظيف الأذن .. ثانيًا : أعرف طريقتك الشهيرة فى افتراض أن كل شىء آمن وأننى مصاب بالبارانويا .. بالطبع هناك ألف واحد رأوا هذه الصور معك .. »

ظلت تنظر للموكيت كأنما تريد أن تثقبه .. من الغريب أنها فى أروع صورها بهذا الشعر المنكوش ، وذلك الوجه شبه المنتفخ من النوم .. قالت لى :

- « ومن فعلها ؟ »

- « أحد سكان الغرف فردية الرقم مثل ٧ و ٩ و ١١ و ١٣ و ١٥ .. أو خادم الغرف لو كانت

هنـاك غرفـة خاليـة .. أو أى واحد مـن أهـل البلـدة يمكنه تسـلق ماسورة المياه إلـى هـذا الطـابق .. إن الاحتمالات محدودة جدًا كما ترين ! »

ـ « وماذا ترى ؟ »

ـ « أعتقد أنه لم يُسرق منك شىء ذو أهمية بالغة .. صور القلاع يمكن إعادة التقاطها .. لاداعى لإحداث شوشرة لن تقود إلى شىء ، ولربما كان إخبار مسز (باتكروفت) هو الحل الأصوب .. هذه النافذة تحتـاج إلى تقوية .. »

ابتسمت فى غموض وقالت :

ـ « هناك شىء مهم قد سُرق .. »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « الإحساس بالأمن .. لا أطيق أن أتصور أن متسللاً كان فى غرفتى ، بينمـا أنـا والطفلة نائمتان واهنتـان هشتان .. »

نهضت واتجهت إلى البـاب ، وقبـل أن أخـرج قلـت لها :

ـ « (ماجى) .. هل تتزوجيننى ؟ »

قالت فى بساطة وهى تمسك بالباب :

ـ « لا .. »

ـ « إننى سـأحميك مـن المتسللين الليليين .. علـى الأقل سأموت أولاً فأمنحك فرصة الفرار .. »

ـ « سأفكر فى الأمر .. »

* * *

فرغنـا مـن مشـاهدة معـالم البلدة ، وقـد تظـاهرت بالحماسة فقط كى أرضيها .. لكنى عاجز تمامًا عـن الانبهـار بمجموعـة مـن القـلاع العتيقـة تطـل علـى المحيط .. دعك مـن أننى مصـرى ، حيث تجد أثـرًا مهمًا تحت أى حجر بلا أدنى مبالغة .. ألم يكن الفلاحـون ينتزعون قطعة مـن معبد (السيرابيوم) كلمـا احتاجوا

إلى بعض الحجر الأبيض ؟ ألم يطه البدو عشاء الإيطالى المغامر (بلزونى) على المومياوات المشتعلة باعتبارها أفضل من الأخشاب ؟ كيف أتحمس بعد هذا لقلعة البارون (فلان) والإيرل (علان) ؟

فى النهاية قادتنا الجولة إلى المقبرة الرهيبة ..

إنها مكان يثير من الأفكار أكثرها جموحًا وسوداوية بالفعل ..

من هذا المكان ترى الكنيسة من بعيد ، وترى مروجًا خضراء تبدو كأن بشريًا لم يمش فيها من قبل ..

مشت (ماجى) وسط الشواهد كأنها تعرف بالضبط ما تبحث عنه .. ثم توقفت فى موضع ما وهتفت فى انتصار :

- « بالضبط هنا .. »

كانت تتحدث عن حفل تلك الليلة ..

مشيت إلى حيث وقفت ورحت أتأمل الأرض .. حقًا لا يوجد أثر لشىء .. لو كانت هناك آثار ما فقد أزيلت بعناية .. توجد بعض آثار الطبشور لكنك لا تستطيع أن ترى شيئًا .. لن تجد نجمة خماسية لو كنت تفكر فى هذا ..

أما ما لفت نظرى هو أن هذا المكان قبر ... كان هناك شاهد قبر تشابكت عليه الأعشاب والنباتات الشيطانية بحيث صار من المستحيل أن ترى بقعة معقولة من الحجر .. لكن - وهذه نقطة مهمة - كان العشب ممزقًا فى أكثر من موضع ، كأنما هناك من كشف هذا الشاهد ، ثم أعاد تغطيته ..

أزحت العشب بلا رفق .. وكان هناك عدد لا بأس به من الأشواك ، لكنى كنت ألبس قفازًا ..

أخيرًا تمكنت من رؤية الشاهد واضحًا .. كان جليًا أنه قديم جدًا .. لكن لا خطأ هنالك .. لا يوجد حرف واحد على الحجر ، فلم تكن عوامل التعرية هى السبب ..



وساد صمت طويل .. فقط رحت أنظر إلى المقبرة الخالية ، والطفلة (إليانور) التى وقفت هنالك فى الخارج تنتظرنا ..

قلت لها وأنا راكع على ركبة واحدة :

- « هل تفهمين ؟ لم يكتب حرف واحد على هذا الشاهد .. فماذا تستنتجين ؟ »

قالت فى توتر وهى تنفث الدخان الأبيض من فمها :

- « أعتقد أنها كانت من علامات الحرمان الكنسى فى القرون الوسطى .. أو ربما صاحب هذا القبر كان على صلة بأعمال .... »

- « كان ساحرًا وأعدم .. لماذا لا تقولينها ؟ »

- « لأن هذا كلام فارغ .. »

- « حسن .. لنقل إننى لا أعرف إن كان ساحرًا أم لا .. لكن المؤكد أن من حوله حسبوه كذلك .. »

وساد صمت طويل .. فقط رحت أنظر إلى المقبرة الخالية ، والطفلة (إليانور) التى وقفت هنالك فى الخارج تنتظرنا .. طبعًا لم يكن من المستحب أن تزور معنا هذا الجزء ..

قلت لـ (ماجى) :

ـ « وهاتــه النسوة كن يقمن احتفالهن فى هذه البقعة بالذات .. »

ـ « نعم .. »

ـ « إنهن يأتين فى الليالى المقمرة ! »

جاء هذا الصوت من خلفى فـأجفلت واستدرت لأرى المتكلم ..

كان من الطراز الذى تراه فى مراجع علم السـموم وقد كتبت تحته (أعراض الكحول المزمن) .. سكير بلغة أقرب إلـى فهمنـا .. كـان رث الثيـاب أحمـر الأنـف .. فى العقد السـادس مـن عمـره .. يـترنح بشدة ..

قال وهو يحاول الوقوف منتصبًا :

ـ « أنا (جيمس إدوود) حـارس هذه المقابر .. هك !

ولاداعى .. هـك ! أن أقـول لـك إننـى أعـرف عم تتكلمان .. أعرفه تمامًا .. »

لهجة أيرلندية قويـة لايمكن أن تخطئهـا .. كأنمـا يقلد شخصًا أيرلنديًا !

تشممت (ماجى) الهـواء فى اشمئزاز وغمغمـت بصوت مسموع :

ـ « كحول فى هذا الوقت ! »

صاح الرجل وقد سمع ما قالت :

ـ « أنا لـم أقـرب الخمـر قط ! كلهم يحـاول إثبـات أننـى سكير وأن كل هذه هـلاوس .. لكنـى أعـرف ما أقول .. هؤلاء النسـوة يـأتين عندمـا يكتمـل القمـر ليمارسن طقوسًا لايعلم إلا اللَّه ما هى .. »

قلت له فى حذر :

ـ « أنت لاتقترب الكحول ؟ لعلك مصاب بخلل فى المخيخ إذن ؟ »

ـ « الآن أقربها ! أقربها كثيرًا ! لقد دمرت هذه المقبرة اللعينة أعصابى والمشكلة أن سنى لا تسمح لى بالرحيل والبحث عن عمل جديد ! »

سألته (ماجى) وهى تدس يديها فى جيبى معطفها الطويل :

ـ « هل تعرف صاحب هذا القبر ؟ هذا الشاهد الذى بلا اسم ؟ »

ـ « هى ! منذ عهد جد جدى ونحن حراس هذه المقابر .. حكى لى جدى شيئًا عن ساحرة دفنت هنا .. ساحرة حرقوها فى ساحة البلدة .. هذه القصص كثيرة على كل حال .. هك ! »

ثم ابتعد وهو يترنح ويقول كلامًا أيرلنديًا كثيرًا لم أستوعب منه حرفًا ..

قالت (ماجى) باسمة بعدما رحل :

ـ « ما رأيك ؟ القصة واضحة ومكتملة .. إن الساحرات يزرن أمهن الروحية .. »

ـ « يبدو الأمر كذلك .. لست من الطراز المتفائل ، لكنى أعتقد أن القصة انتهت عند هذا الحد .. »

هذا خطأ آخر ..

أنتم تعرفون أن هذا خطأ آخر ..

* * *

4 ـ عن (رونيل السوداء) ..

فى التاسعة مساءً جلسنا فى قاعة الجلوس نثرثر، والجريدة أمامى لا أفهم عمّ تتكلم ..

إن (ماجى) لم تتغير قط .. قلت هذا مائة مرة وأقوله مرة أخرى .. دعابات تلقينى من على المقعد ضحكًا، ورقة (تكاد تنبت الزهر فى قلب الصخرة الجلمود) على رأى عمنا العبقرى (الشابى) .. ولربما (طهارة تبعث التقديس فى مهجة الشقى العتيد) كذلك ..

رحت أرمقها وهى تتكلم .. كالعادة لم أع حرفًا مما تقول لأن خواطرى تزاحمت .. أصغيت لها أكثر من اللازم حتى لم أعد أفهم شيئًا ..

لماذا لانتزوج ؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال ألف مرة، والإجابة تبدو واهية لكنها الحقيقة .. كل منا

يريد أن يبقى الآخر على مسافة كى يظل رمزًا عزيزًا أبديًا .. حين يتحول الآخر إلى معنى ..

لكن مايثير جنونى بصدد (ماجى) هو التفكير فى كل الساعات التى تعيشها بعيدًا عنى .. كل الأفكار الذكية والدعابات والرقة التى تشعها من حولها، بينما أنا فى شقتى الكئيبة أقاسم الأشباح الطعام .. يمضنى ذلك الشعور المزمن بأنها (ستنفد) .. لن يبقى منها شىء لى لأن مصير الشموس كلها الخمود (الإنتروبى) .. لو استطعت لاستوليت على ماضيها وحاضرها وغدها بوضع اليد .. كل الأعوام التى فاتتنى وهى طفلة، وكل الأعوام التى ستفوتنى حين أختفى فى القبر .. كل هذا يجب لاحتكاره .. ربما لو كان هناك محام بارع لاستطاع أن ...

ـ « (رفعت) ! أنت لا ترفع عينيك عنها ! »

تبًا لكن من ظالمات ! أنا أرتدى عوينات القراءة ولا أرى أبعد من متر أو أقل .. ثم إننى غارق فى التفكير فيك وبرغم هذا ...

ـ « لا أعرف عمن تتكلمين .. »

ـ « تلك المرأة السوداء .. نزيلة أمس .. طبعًا .. »

هنا فقط فهمت عمن تتكلم ، وبدلت العوينات .. عوينات المسافات كى أرى أفضل .. كانت تلك الآنسة جالسة إلى منضدة مجاورة تشرب الشاى وتطالع الجريدة مثلى .. رفعت عينها فرأتنى فهزت رأسها فى رقة ، وهتفت :

ـ « عمت مساء يا دكتور .. صارت نافذة غرفتى سلسة .. شكرًا لك ! »

همست (ماجى) بصوت كالفحيح :

ـ « نافذة غرفتها ؟ متى وكيف ؟ »

قلت وأنا أبدل العوينات :

ـ « نافذة غرفتها كانت متيبسة .. وقمت بفتحها لها .. »

ـ « ومنذ متى تجيد فتح النوافذ ؟ ألاحظ أن فتح الجر... قد أصابك بنوبة قلبية .. »

فى هذه اللحظة دخل المكان شاب على درجة من الوسامة .. كان فارع القامة قويًا يبدو أنه خلق ليمثل أفلام رعاة البقر مع (جارى كوبر) أو (جون واين) .. حين كان أبطال الأفلام يوجهون لكمات قوية إلى فك أعدائهم ، قبل أن يظهر اختراع الركلات .

وتصايح الجالسون :

ـ « قد عاد (أونيل) ! »

عاد ؟ أين كان إذن ؟

بدأ الحوار الأيرلندى الذى أقنعنى بالفعل أن الأيرلندية لغة لا علاقة لها بالإنجليزية .. حين يتحدث هؤلاء القوم مع بعضهم يأخذون راحتهم ويستحيل عليك فهم حرف واحد ، بينما حين يكلمونك يحرصون على جعل كلامهم مفهومًا لك .. نفس الظاهرة تلاحظها مع الأسكتلنديين .. ومع رعاع لندن حين يستعملون لهجة (الكوكنى) ..

قالت (ماجى) :

- « هذا الفتى كان فى (دوبلين) يجرب حظه فى التمثيل مع فرقة مسرحية ما .. »

- « سينجح لو كان الدور المطلوب هو باب مخزن .. »

ثم إن الفتى نظر نظرة عابرة إلى الفتاة السوداء الجالسة وحدها .. رأيته يترك المحيطين به ويتجه نحوها .. يقف أمامها .. يتكلم معها فى لباقة والفتاة تبتسم ثم تضحك .. تشير إليه كى يجلس .. هذه الفتاة أرستقراطية لكنها ذات ميول بروليتارية لا شك فيها .. فالفتى لا يبدو من طبقتها على الإطلاق ..

وقف رجل مرح جوار منضدتنا وقال :

- « (ويليام أونيل) .. إن الفتى يعرف كيف يروق للنساء .. »

ثم مد يده لى مصافحًا وقال :

- « (باتريك بارنيل) .. من أعيان البلدة .. بمعنى آخر أنا عاطل بالوراثة .. »

نظرت له (ماجى) فى فضول وهتفت كمن دق الاسم جرسًا فى رأسه :

- « أنت ... »

- « نعم .. من أسرة (بارنيل) .. وهى أسرة اشتهرت فى سلك القضاء .. إننا علامة على هذه البلدة .. لكننى لم أدرس القانون أو بمعنى آخر لم أستكمل دراسته .. »

دعوته للجلوس فشد مقعدًا وجلس، ومد يده يداعب شعر (إليانور) .. لن أندهش لو عادت الطفلة لأمها صلعاء تمامًا بعد هذه الرحلة .. لسبب ما يفترض الجميع أنها كلب (بلاك جاكت) يجب المسح على رأسه ..

بعدما تم التعارف قال لى :

- « لا تؤاخذنا .. نحن الأيرلنديين قوم حارو العواطف مرحون، ولسنا ثقيلى الظل منشين كالإنجليز .. يقولون إننا سريعو الغضب ميالون للشجار .. هذا صحيح .. لكن هذا يدلك أكثر على طيبة قلوبنا .. »

وأشار إلى الجالسين حولنا وبدأ يشرح لى :

ـ « كل واحد من الجالسين هنا لم يترك البلدة قط .. كل واحد يعرف أجداده وأجداد الآخرين .. يمكنك أن ترى الجميع هنا لأن هذا الخان أقرب إلى النادى .. هل ترى هذا الرجل المتأنق كث الحاجبين ؟ إنه السير (جون مليجان) سليل أسرة (مليجان) الأرستقراطية .. كانوا دومًا أكثر الناس ثراءً فى هذه البلدة .. هل ترى هذا العجوز البدين الذى ينظر فى ساعة الصديرى ؟ إنه آخر أحفاد (كيليبارون) الذين حكموا هذه البلاد فى عصر الإقطاع .. أنت رأيت قلعتهم .. لكنه لايعيش هناك .. هذا الذى يحتسى القهوة هو القس (كيرباتريك) .. وهو من أسرة قساوسة لاتدرى من أين بدأت .. ربما منذ دخول المسيحية إلى أيرلندا .. »

قلت مبتسمًا فى خبث :

ـ « يبدو أن الزمن لايتغير هنا .. لو كان فى هذه

القاعة خبير قنابل ذرية ، فلاشك أنك ستقول إن جده كان خبير قنابل نووية فى القرن الخامس .. »

ـ « هو ما تقول .. هو ما تقول .. »

هنا مالت (ماجى) عليه وسألته السؤال الذى كنت سأسأله بنفسى :

ـ « اليوم وجدنا قبرًا ليس على شاهده كتابة .. لقد أثار هذا فضولنا .. هل تعرف هذه القصة ؟ »

قطب للحظة كأنما يتذكر ثم هتف فى مرح :

ـ « آه ! ياللغرابة ! (رونيل السوداء) !! كنت قد نسيت هذه القصة تمامًا !! »

هنا دوى صوت تهشم الزجاج !!

* * *

قالت (لورين) بصوتها الخشن نوعًا :

ـ « آسفة .. سأدفع ثمن ما هشمت .. »

قالت مسز (بانكروفت) وهى تجمع بقايا براد الشاى الخزفى بالمكنسة :

ـ « لا عليك .. هذه أشياء تحدث لأى واحد .. »

وقال الشاب فى شهامة وهو يجفف مفرش المائدة :

ـ « إن مسز (بانكروفت تعرفنى .. سوف أسوى الأمر فلا تقلقى .. »

راح مرافقنا السيد (بارنيل) ينظر إلى الفتاة فى فضول ، ولاحظتِ نظراته بدورها فنظرت له فى حدة لاشك فيها .. ثم التفت لى وتساءل :

ـ « ما زلت لا أفهم سبب وجودها هنا .. »

ـ « كاتبة قصصية هى .. أنت تعرف هؤلاء الكتاب .. »

ـ « قلت إن اسمها (لورين) ؟ غريب .. ليكن .. والآن أكمل قصتى .. أين كنا ؟ آه .. هل تعرف أن (رونيل السوداء) هذه اتهمت بالسحر ، وكان القاضى الذى حكم عليها بالحرق هو جدى القاضى

(ستيوارت بارنيل) المحترم ؟ كان صارمًا يختلف كثيرًا عن أحفاده ، وقد أعدم ساحرات كثيرات برغم أن هذه القصص نادرة فى إنجلترا .. لسنا فى إسبانيا أو فرنسا .. »

دخل المكان رجل يوحى بعدم الكفاءة .. لو كان سباكًا فهو خائب ، ولو كان طبيبًا فهو غبى ، ولو كان ...

ـ « هذا رئيس الشرطة (آرثر بيرك) .. إنه لا يعمل شيئًا على الإطلاق وراتبه يناسب ما يعمله بالفعل .. »

هذا رئيس شرطة ! فى بلدة هادئة مسالمة كهذه يكون هذا الرجل كحارس المرمى الذى لم يختبر .. لكننى أعرف نتائج عمله جيدًا من شاربه الكث المتهدل ونظرة عينيه الرخوة ، وثيابه الزرية ..

ثم إن الرجل ـ (بارنيل) ـ راح يحكى لنا ما أعتقد أنك قرأت ملخصه فى بداية الكتيب .. هناك تفاصيل معينة أخرى أبقيها لنفسى ، وتفاصيل نسيتها ، وتفاصيل يحسن أن أنساها ..

ظللنا نتحدث طويلاً جدًا حتى إن الطفلة احمرت عيناها ، ثم وضعت رأسها الأشقر الصغير على كتف (ماجى) وراحت تغط .. أعترف أننى إن كنت أكره الأطفال فأنا أحبهم نائمين .. إنهم يبدون ملائكة بالفعل يختلفون تمامًا عن الشياطين التى يكونونها وهم متيقظون .. وقالت (ماجى) فى رفق :

ـ « سأضعها فى الفراش ثم أعود .. »

وأسندت الطفلة متحاملة حتى تصل بها إلى الغرفة ..

نهض القس أولاً وحيانا جميعًا فى رصانة ، ثم اتجه إلى الباب ..

فى هذه الأثناء بدا أن صداقة حقيقية انعقدت بين الفتى (أونيل) وتلك الأرستقراطية ..

رأيتهما ينهضان وهما يواصلان حديثًا ضاحكًا هامسًا ، ثم اتجها إلى الباب بدورهما .. ونظر (إليوت) من وراء كتفه إلى الرجال نظرة من طراز (إياكم ـ أن

ـ تتناولوا ـ سيرتنا ـ بالسوء ـ وإلا ـ الويل ـ لكم) .. فخفض الجميع عيونهم إلى أكوابهم ..

لكن ما إن خرج حتى هتف (باتريك بارنيل) :

ـ « بارع هذا الفتى بحق ! »

وغمغم أحدهم فى ضيق :

ـ « إنهن منطلقات فى (شيفيلد) ولسن مثل نسائنا اللواتى يحلقن نقونهن يوميًا .. »

ثم ساد الصمت لأن (ماجى) قد عادت ، وهى تفهم الإنجليزية لو كنت تدرك هذا !

ثم بدأ أكثر الموجودين فى الانصراف .. هنا دوى صوت الغراب ..

تبادلنا النظرات .. لم يكن التأثير العام مريحًا ، لولا أن قطع (بارنيل) الصمت بترديد مقطع من قصيدة (بو) الشهيرة (الغراب) ..

ـ « غربان هنا ؟ لم أسمع أحدها هنا قط .. »

ـ « هذه الأشياء تحدث .. »

وحيانى الرجل ونهض .. بينما جلست مع (ماجى) لمدة ساعة أخرى ..

هناك دائمًا تلك اللحظة المؤسفة التى تدرك فيها حقيقة أنك لن تظل هنا للأبد .. لابد من كلمة (مساء الخير) .. ثم تصعد إلى حجرتك ثملاً بالأحلام .. تترنح فى صعودك الدرج ، وتنزلق قدمك .. تدخل غرفتك ورأسك ينبض بأشياء كثيرة إلى حد أنك لاتعرف فيم كنت تفكر على الإطلاق ..

أعرف هذه الأعراض جيدًا ..

وفى الصباح عرفنا نبأ موت الضحية الأولى ..

* * *

5- وتهاوى السد ..

لم يكن هناك الكثير مما يقال ..

لم يعرف أحد بنبأ الوفاة إلا فى السابعة صباحًا حين جاء بائع الجرائد إلى الخان ، وكان معتادًا على أن يجتاز الزقاق المجاور .. هذا ممر لا يهواه الكثيرون لأنه قذر ، لكن الفتى كان يحبه لأنه يختصر الكثير من الوقت ...

وكانت جثة القس ممددة على الأرض ، ويبدو انه لم يتعذب كثيرًا لأن الضربة التى هشمت رأسه من الخلف فعلت كل شىء فى الوقت ذاته ..

طبعًا أصيب الفتى بالهستيريا ، وركض إلى الخان وهو يولول ويصرخ .. يصرخ ويولول .. وكانت هذه الضوضاء هى ما أيقظنا من سباتنا ..

تحول المكان إلى خلية نحل .. فهذه البلدة لم تر

حدثًا غير تقليدى ربما منذ حرق (رونيل السوداء) .. وجاء رجل الشرطة غير الكفء (آرثر بيرك) وقد بدا عليه ارتباك شديد .. هو لا يعرف كيف يبدأ ..

راح يسأل هذا ويسأل ذاك ويسجل أشياء فى دفتره ، لكنه كان عاجزًا عن تجميع أفكاره ..

المشكلة هى أنه كان جالسًا فعلاً عندما غادر القس الخان .. أى أنه يعتبر واحدًا من آخر من رأوه .. والسؤال هنا هو : من يكره القس إلى حد ضربه بمطرقة على مؤخرة رأسه ؟

- « كيس رمل ! ليس مطرقة بل كيس رمل ! لا تنس أننا فى إنجلترا بلد (أجاثا كريستى) حيث يحبون القتل بكيس رمل ملىء .. أو قطعة ثلج سرعان ما تذوب جوار الضحية ليختفى سلاح الجريمة ! »

قالتها (ماجى) فى شىء من السخرية المريرة ونحن جالسون إلى مائدة الإفطار .. ثم أضافت :

- « أنت هنا ! الواقع أننى بدأت أتساءل عن الكارثة ولماذا لم تحدث ! »

- « هذا غير عادل .. »

جاء (بيرك) وطلب قدحًا من الشاى ، ثم اتجه إلى حيث جلسنا إلى المنضدة ، فقال :

- « معذرة أيها السيدان .. الحقيقة أننى يجب أن أثقل عليكما بالأسئلة لأنكما غريبان فى هذه البلدة .. »

قلت له باسمًا :

- « هذا من حقك يا سيدى .. لكن لاحظ أننا كنا جالسين أمامك .. ثم صعد كل منا إلى حجرته أمامك أيضًا .. هل غادر أحدنا الخان ليلاً ؟ »

- « لا .. مسز (بانكروفت) تقول لا .. لقد تأكدت من هذا .. »

وداعب شاربه فى حنكة بوليسية ثم أضاف :

- « هناك تلك الفتاة من (شيفيلد) .. لكن (أونيل) لم يتركها لحظة .. وقد عادا إلى الخان بعد ساعة .. أنا أثق بـ (أونيل) طبعًا .. »

قلت له وأنا أرشف القهوة :

ـ « أعتقد أنك بحاجة إلى آخرين .. (سكوتلانديارد) أو شىء من هذا القبيل .. »

ـ « هناك فريق جنائى قادم اليوم .. لكن من واجبى أن آخذ بعض البيانات .. »

وبالفعل جاء بعض السادة شديدى الأهمية عند الظهيرة .. كانوا يرتدون المعاطف الخاكية ويرمقوننا فى شك ، ومعهم عربة إسعاف وضعوا فيها الجثة ، ثم راحوا يستجوبون الجميع ويعرفون كل شىء ..

فى النهاية ـ عندما اقترب المساء ـ نظروا لنا فى كراهية ثم انطلقت سياراتهم عائدة إلى حيث جاءت .. إلى أين ؟ إلى المكان الذى يأتى منه الرجال شديدو الأهمية الذين يرتدون المعاطف الخاكية ..

لا أدرى لماذا شعرت بحاجة إلى أن أمشى قليلاً فى البلدة فى هذه الإضاءة الغريبة .. إضاءة المساء المقبل ..

قدماى حملتانى إلى المقبرة إياها .. ووقفت فوق مرتفع صخرى أرمق المشهد الرهيب ..

من المؤسف أننى لن أكون هنا الشهر القادم حين يكتمل القمر .. لربما لو رأيت مشهد الساحرات هذا لخطرت لى بعض الأفكار ، لكن القمر كان مكتملاً قبل قدومى بثلاثة أو أربعة أيام .. سأكون وقتها فى مصر ..

هنا لمحت ذلك الشبح يتحرك بين شواهد القبور ..

ما كل هذا الثبات ؟ كأنها تمثل فيلمًا سينمائيًا والمخرج قد طلب منها أن تبدو رهيبة ثابتة الجنان .. كما أنها تعرف التأثير المسيطر الغريب للشخص الذى يضع يديه فى جيبى معطفه الأسود الطويل ، وينقل كعبى حذاءيه طويلى الرقبة فى ثقة .. كل من رأى نمط الجنرالات النازيين فى السينما يعرف ما أقصد ..

كانت هذه هى كاتبتنا الشابة الواعدة (لورين) ..

تمنيت ألا ترانى .. لسبب ما لا أطيق وجودها ..

لكنها رأتنى .. وهكذا مشيت بنفس الثقة إلى حيث كنت واقفًا أرتجف من البرد .. وقالت :

ـ « هالو .. أنت تجد ذلك السحر الشاعرى فى المقبرة مثلى ؟ »

ـ « ليس موضوع شاعرية .. فقط أحب زيارة البيت الذى سأعيش فيه للأبد بعد قليل .. »

أخرجت علبة تبغ ، وجذبت منها لفافة غريبة طويلة تشبه القلم الذهبى ، وأشعلتها فى أناقة وقالت :

ـ « أحيانًا تشعر بأنك أقوى من الموت ذاته .. أنك كنت هنا يومًا ثم تحررت وعدت .. وأن الحياة تبدأ من جديد ولاتنتهى .. أحيانًا تشعر بأنك فى زمن آخر فى مكان آخر كنت واحدًا آخر .. لكن هل كنت تعرف ذاتك وقتها ؟ هل كنت تعرف أنك هو أنت ؟ لو لم يكن الأمر كذا فلاقيمة له .. هل تفهمنى ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « تبدو لى ذكيًا لايحتاج إلى كلمات كثيرة .. »

قلت وأنا أنظر إلى المقبرة التى لم يعد فيها إلا درجات اللون الأزرق :

ـ « لو كنت تتحدثين عن تناسخ الأرواح فأنا لا أومن به .. »

ـ « لا أتحدث عن تناسخ الأرواح .. بل أتحدث عن عودتها إلى عالم المادة .. »

هززت رأسى غير راض .. ساد الصمت برهة ثم سألتنى وهى تنفث ذلك الدخان العطر :

ـ « تحبها ؟ »

ـ « من ؟ »

ـ « تلك الفتاة الأسكتلندية .. مس (ماكيلوب) .. لا أعتقد أنها تميل لك كثيرًا .. أنتم الرجال تخلطون بين المجاملة والمعاملة اللطيفة والحب .. »

ـ « يمكننى أن أكون فظًا وأقول إن هذا ليس من شأنك .. لكن لا .. سأريحك .. أحبها جدًا .. ولا يهمنى رأيها فى الأمر .. لن أتغير .. سأظل منتميًا لها .. »

كانت وقحة لكنى لسبب غير واضح لم أستطع أن أخرسها كما يجب .. ربما أرتج على .. قالت لى فى مكر :

- « كما تحب .. »

كانوا يقولون عن ممثلة الرعب العظيمة (باربرا ستيل) ، إنها ترمز إلى المرأة (كآخر) .. المرأة كعدو خارجى مخيف غامض .. هذه الفتاة جعلتنى بالفعل أتذكر هذه الكلمات ..

وفى صمت مشينا معًا عائدين إلى الخان .. لكن هذه المحادثة ظلت فى ذهنى طويلاً ..

* * *

فى المساء وجدوا جثة (كيليبارون) .. العجوز البدين ..

هذا الرجل تعذب كثيرًا لأن كل أطرافه كانت مهشمة ، وقد التوى عنقه للخلف بتلك الطريقة الشهيرة فى القرون الوسطى للذين قتلتهم الشياطين .

إن الرجل يعيش وحيدًا فى داره بعد ما رحل أولاده وماتت زوجته .. هناك كالعادة مدبرة بيت عجوز هى

مسز (سميث) ـ ككل مدبرات البيوت ـ وكانت قد أخذت إجازة لهذا اليوم على أن تعود فى المساء ..

- « فكرت فى زيارة أختى .. »

فلما عادت ، كان ما لفت نظرها أن المنزل مغلق من الداخل جيدًا .. فتحت الباب بالمفتاح ودخلت ، ولما لم تر أثرًا للحياة ، افترضت أن الرجل ذهب ليقضى سهرته فى الخان ..

- « ثم سمعت صوت المذياع مفتوحًا .. »

وبالطبع ذهبت لتعرف سبب ترك المذياع مفتوحًا .. فوجدته فى قاعة الجلوس ..

كان راقدًا على السجادة ، وخطر لها أنها نوبة قلبية .. لكنها أدركت أن اتجاه وجهه لأعلى لا يعنى أن بطنه فى نفس الاتجاه ! هنا أصيبت هى نفسها بنوبة قلبية .. واحتاجت إلى بضع دقائق وقرص من موسع الشرايين تحت لسانها حتى استطاعت استخدام الهاتف وطلب الشرطة ..

وعندما جلست مع (ماجى) والطفلة فى قاعة الجلوس ، كان الخبر قد انتشر كالنار فى الهشيم ..

- « (كيليبارون) مات ! »

- « (كيليبارون) مات! »

وصاحت مسز (بانكروفت) فى رعب :

- « ماذا حدث فى هذه البلدة ؟ فقدنا شخصين من خيرة أهلنا فى يوم واحد !! »

لخفيت وجهى فى مفرش المنضدة كى لاتقول شيئًا على غرار (الخير على قدوم الواردين) .. والحقيقة أننى أعرف نفسى جيدًا بحيث صرت لا أغضب لتهمة من هذا النوع بل وأؤكدها .. فعلاً الخير على قدوم الواردين فى حالتى على الأقل .. ما إن أظهر فى مكان حتى يتحول إلى جحيم .. وهى كما ترون موهبتى الوحيدة التى تؤهلنى لسرد هذه القصص ..

وجاء (بارنيل) ليجلس إلى مائدتنا ، وقال :

- « رجل آخر يعض التراب .. كنا كل يوم نتوقع أن يحدث هذا .. مع كل الكولستيرول الذى يفعم شرايينه ، وكل مايجثم على روحه من شحم ، لكننا توقعنا أن يمنحنا وقتًا .. عناية مركزة .. شلل .. فترة ماتجعل الرحيل تدريجيًّا ، لكن من المؤلم أن يرحل بهذه الطريقة .. تهشيم أطراف ولى عنق ؟ هذا رهيب ! »

قلت له همسًا :

- « قل لى .. هل هناك من نتهمه بهذا ؟ »

نظر لى كأنما يرانى لأول مرة ، وهتف :

- « سيكون هذا غريبًا .. من يستطيع عمل هذا ؟ لابد أنه كتلة من العضلات .. »

- « لنتكلم بصراحة أكثر .. ألا يوحى الأمر بشىء خارق للطبيعة ؟ »

بدا الإرهاق على وجهه وقال :

- « بلى . ربما . لكن هذه الأشياء لاتحدث على قارعة الطريق .. أنا بعد كل هذا العمر لم أر ظاهرة خارقة فى حياتى .. »

ـ « أنت إنسان سعيد الحظ .. »

ومن جديد بدأت الأسئلة المملة والتحقيقات .. لن أتحمل البقاء فى هذه البلدة بعد القتيل الثالث ما لم يكن أنا بالذات .. وقد تساءل كثيرون :

ـ « ما الذى يربط بين القس وهذا الرجل (كيليبارون) ؟ »

لم تكن هناك إجابة واضحة ..

* * *

6 ـ كشف الأوراق ..

أما عن وفاة السير (مليجان) فالأمر يحتاج إلى وقفة ما ..

كنت قد انتهيت من التحقيقات الطويلة التى لاتفضى إلى شىء والتى يسكبها رجل الشرطة (بيرك) على رأسى ورأس (ماجى) .. كلها أسئلة غبية كان يرى رجال الشرطة يسألونها فى الأفلام لو كان يرى بعضها .. أين كنت عندما قتل (كيليبارون) ؟ ومتى قتل (كيليبارون) يا سيدى ؟ ماذا ؟ لا أعرف .. ظننتك أنت تعرف ..

وهكذا .. الكثير من هذا الهراء ، حتى إننى شعرت بحاجة ماسة إلى استنشاق الهواء النقى ..

غادرت و (ماجى) الخان والطفلة تمسك بيدى .. الحقيقة المخجلة هنا هى أننا صرنا صديقين .. الحقيقة

الأكثر إثارة للخجل أننى صرت مرتبطًا بها بشدة .. إنها طفل مسالم لطيف أقرب إلى دمية جميلة ..

مشيت و(ماجى) فى الممر الذى يقود إلى الشارع الرئيسى، وكنا صامتين .. لكننى كنت أملك ألف تعليق على ما يحدث .. لكن السؤال الأهم هو (لماذا الآن بالذات؟)

قالت (ماجى) وهى تعقد ذراعيها على صدرها فى أثناء المشى:

ـ « لا أعرف .. أنا لا أثق كثيرًا بموضوع النحس هذا .. لقد بدأ الشىء مع قدوم الغرباء .. أنا أعرفك وأعرف نفسى وأعرف أننا لسنا من الطراز الذى يلوى عنق الشيوخ للخلف .. هنا يبرز بقوة اسم (لورين بلاك) هذه .. هذه الفتاة لا تريحنى على الإطلاق .. ربما لا ترى الرأى ذاته، لكن حاسة الأنثى لا تخطئ .. »

قلت فى ضيق:

ـ « أنا أرى الشىء ذاته .. هناك إشاعة مغرضة تملأ البلدة أنها فاتنة .. حسن .. أنا لا أرى هذا .. »

ـ « لكنك لا تنكر أنها ساحرة؟ »

ـ « ساحرة .. نعم .. بالمفهوم المجازى .. و ... »

ثم تلاقت عينانا .. لماذا فكرنا فى الشىء ذاته فى نفس اللحظة؟

كانت هناك سيارة واقفة إلى جانب الطريق فى هذا الموضع المهجور نسبيًا .. سيارة صغيرة بريطانية جدًا .. ولسبب ما لم تبد لنا وقفتها مريحة هنالك فى الظلام الذى ملأ المكان ..

قالت لى وهى مستمرة فى المشى:

ـ « لو فرضنا جدلاً أنها هى .. هل تتوقع أنها تجيد لىّ أعناق الناس؟ »

قلت فى شرود:

ـ « القصة غير واضحة .. لا أستطيع أن أراها قاتلة .. ولأى غرض؟ »

هنا كنا قد وصلنا قرب السيارة ..



ألقيت نظرة عابرة إلى داخلها ، وفى اللحظة التالية وجدت أننى على الأرض .. وألم حاد يمزق خصرى ..

ألقيت نظرة عابرة إلى داخلها ، وفى اللحظة التالية وجدت أننى على الأرض وألم حاد يمزق خصرى ...

وأمامنا وقف السير (ميليجان) ..

كان هو ولم يكن هو ..

إنه ينزف من عشرة مواضع على الأقل ، وقد جعلته لحظة اقتراب الموت متوحشًا .. لا أعرف كيف استطاع فتح السيارة لكنه فعل وبقوة كاسحة .. ربما عالج المقبض بقدمه .. لا أدرى بالضبط ..

وهنا فهمت .. قفّ الشعر على جانبى رأسى حين فهمت ..

لقد كان مكمم الفم ، مقيد اليدين إلى ظهره ، ومن كل أوردته العملاقة كانت هناك خراطيم تتدلى .. خراطيم تتصل بإبر كأنما كان يتلقى الحقن الوريدية من خلالها ، لكن هذه الخراطيم كانت تنزف .. ومن الجلى أنه نزف

كثيرًا جدًا .. أنا أعرف أن من يقطعون شرايين معصمهم يصابون بحالة جنون هياجى قرب النهاية ، وكان السير (مليجان) قد دنا من النهاية ..

مشى جوارنا .. وهو يصدر خوارًا كالثيران ..

ثم رأى (ماجى) فاتسعت عيناه وراح يترنح وهو يركض نحوها .. الطفلة لاتكف عن العواء ..

صرخت (ماجى) وبدأت تجرى .. لكنى صرخت فيها بدورى :

- « لا تهربى منه ! ساعديه !! »

وهرعت لألحق بالبائس .. فقط ليوجه لى ركلة فى أسفل بطنى جعلت الهواء يخرج من أذنى .. لم يرفسنى حصان من قبل لكن لابد أن الأمر أفضل من هذا ..

استندت إلى الجدار بينما صرخات الطفلة تجعل الأمر أقرب إلى الجحيم .. اخرسى قليلاً بالله عليك !!

إن الدم .. يعود .. إلى .. رأسى .. من .. جديد ...

أنا .. قوى .. التحمل .. برغم .. ضعف .. صحتى ...

لن .. أموت .. بقدم رجل قتيل أصلاً ..

فى هذه اللحظة سقط الرجل على الأرض بينما الطفلة لاتكف عن إطلاق سرينتها ...

وأدركت من ثبات وضعه أن الأمر قد انتهى ..

سألتنى (ماجى) باكية وهى تعتصر الطفلة :

- « هل أنت بخير ؟ »

- « سأعيش .. والآن هلا عدنا إلى الخان ؟ لابد .. من ... غوث ... »

* * *

جاء الدكتور (ك. أوجليفى) بعد ربع ساعة .. وكان الأمر قد انتهى .. كانوا قد أحضروا الجثة مغطاة بالملاءات ، وساد صمت رهيب .. الموت بحضوره المقبض .. من المجاملة أكثر من اللازم أن نقول إنه ضيف ثقيل لاتجد راحتك فى حضوره .. بل لاتستطيع الكلام بحرية ...

كان الطبيب أصلع الرأس قصير القامة متأنقًا جدًا ،

وقد راح يجفف العرق المتراكم على جبينه برغم الطقس البارد ، وقال لنا :

- « أفهم من هذا أن دماء هذا الرجل استنزفت حتى الموت ؟ »

قلت له فى نفاد صبر :

- « تشخيصك دقيق أيها الزميل .. »

- « ومن الذى يفعل شيئًا كهذا ؟ »

مططت شفتى السفلى فى غباء .. إنه الشيطان ذاته لو كان يجيد تركيب الإبر الوريدية ..

هذه المرة بدا أن البلدة كلها احتشدت فى الخان ، وهو ما كان ليسعد فؤاد مس (بانكروفت) لو لم تكن فعلاً سيدة طيبة القلب لاتحب موت زبائنها ..

شعرت بالحضور إياه فنظرت وراء كتفى .. كانت الكاتبة السوداء عائدة من الخارج مع الأخ (أونيل) الذى لم يعد يفارقها فى الآونة الأخيرة ، ومعهما

سيدة أخرى فى الخمسين لم أرها من قبل .. لو كنا فى مصر لقلت إنها أمه تتعرف عروسه المقبلة .. كانت (لورين) تضع نظارة سوداء فلما شعرت بأن هناك تجمعًا مريبًا نزعت نظارتها ، وهزت رأسها ثم ودعت الفتى واتجهت إلى غرفتها ..

كانت (ماجى) تنظر إلى المشهد وكذا أنا .. فتحت شفتيها ومطت عنقها نحوى فى إيماءة أعرفها جيدًا ، فملت عليها بأذنى لأسمع ، وقبل أن تتكلم قلت أنا :

- « نعم .. نعم .. المرأة التى مع (أونيل) .. »

- « تعرفها .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. لكنى عاجز عن تذكر متى وأين ... »

مع (ماجى) تخطر الفكرة فى ذهنى فترد هى عليها من دون كلام .. بل إن بوسعى أن ألومها على فكرة سخيفة لم تصرح بها .. تتوارد خواطر قاتل نعرفه من أيام بعثتى القديمة هنا ..

قالت فى خبث :

- « الصور ! هذه إحدى النساء اللاتى كن يرقصن فى المقبرة ! »

- « هل .. تعتقدين هذا ؟ »

ونظرت للمرأة .. لست متأكدًا لأننى لم أر الصور بما يكفى .. لكن وجهها بالتأكيد مألوف ، وفى الغالب انطبع فى ذهنى من وقتها .. ما معنى هذا ؟

سرى الإشعاع السايكوفيزيائى بين الجالسين ، وتقدم رجل متأنق بدين معتد بنفسه إلى وسط الدائرة ، وقال فى تؤدة :

- « يجب أن نتحدث بصراحة يا رفاق .. هذا الذى يحدث فى بلدتنا الهادئة لا يُصدق .. ويوحى بلعنة ما تتجاوز فهمنا .. هل هناك من يربط مثلى بين هذه الأحداث وقدوم غرباء إلى البلدة ؟ »

تعالت الهمهمة فصاح آمرًا :

- « من ير هذا فليرفع يده .. »

ارتفعت عشرات الأيدى .. ما كنت أحسب أن كل واحد من هؤلاء القوم له ست أذرع إلا بعد ما رأيت هذا بنفسى ..

قالت (ماجى) فى تحد :

- « حسن .. ومن ير أننا قتلنا هؤلاء الثلاثة فليقل هذا صراحة .. »

لم يتكلم أحد .. فقالت فى هدوء :

- « أنا ومرافقى سنرحل غدًا صباحًا .. لو كنا نجلب الشيطان معنا فنحن سنريحكم .. »

هنا هتف رجل الشرطة (بيرك) فى رعب :

- « هذا لن يكون .. لن يفارق أحد البلدة قبل قدوم رجال التحريات الجنائية .. سأطلق الرصاص على أول من يفكر فى الخروج .. »

على الأقل هو يتصرف بشكل صحيح من حين لآخر ، لكن ها نحن أولاء قد صرنا محاصرين ..

هنا هتف رجل من الجالسين :

- « لحظة .. من يشعر بارتياب فى تلك الفتاة من (شيفيلد) فليرفع ذراعه .. »

هذه المرة ارتفعت مائة ذراع .. هؤلاء ليسوا بشرًا .. إنهم عشيرة من الأخطبوط ..

- « هى لاتكتب شيئًا وتكاد لاتمضى وقتًا فى حجرتها .. إنها تجوب البلدة طيلة اليوم .. كلنا رآها فى المقابر .. ماذا تفعل هناك ؟ من هى حقًا ؟ »

هنا قرر الفتى (أونيل) أن يقوم بواجبه ، فهب يمسك بقائل هذا من ياقة سترته ، وكور قبضته العملاقة وشدها إلى الوراء فى وضع مألوف .. إنه بالفعل يتصرف كأنه زميل (جارى كوبر) :

- « من يقل حرفًا واحدًا يسىء لها سأهشم وجهه ! »

قال الرجل الأول المعتد بنفسه :

- « الحقيقة يا بنى أنك صرت فى قبضتها .. إنك مفتون بها .. »

- « بل أنتم مرضى النفوس .. الحقيقة أنها بهرتكم جميعًا .. وحين لا ينال الرجل فرصته فإنه يختلق الأكاذيب ويتحول إعجابه إلى حقد .. (لورين) اختارت رجلاً واحدًا فى هذه البلدة التعسة وأنتم لا تطيقون هذه الفكرة .. »

كلامه صحيح حتى إن كان لا ينطبق على هذه الحالة .. إن كل من قرأ أو شاهد رواية (زوربا اليونانى) للعظيم (كازندزاكيس) يذكر جيدًا مشهد قتل الأرملة الجميلة على يد رجال القرية بدعوى الحفاظ على الأخلاق .. والحقيقة أنهم قتلوها لأنها لم تختر واحدًا منهم ..

المهم أن الموقف تحول إلى نار متأججة وكادت اللكمات تتطاير ، لولا أن الرجل المعتد بنفسه وقف وصاح :

- « يا رجال .. أنا أقترح أن نحبس الغرباء فى غرفهم إلى أن يأتى رجال التحريات .. لا نريد مشاكل

جديدة .. أنا أعتذر لهم بشدة على هذا لكنهم يفهمون دوافعنا .. »

صاحت (ماجى) فى عصبية :

ـ « يحبسوننا ؟ بأى حق ؟! »

لكنى ضغطت على معصمها وهمست :

ـ « لا مشكلة فى إجراء كهذا .. إنها ليلة واحدة بعدها نترك هذه البلدة بمشاكلها .. لا داعى لتصلب الرأى .. »

وهكذا بدأ الحشد يتفرق من حولنا ليفسح لنا الطريق ..

هنا توقفت وقلت بصوت عال :

ـ « بالمناسبة .. أين مستر (بارنيل) ؟ (باتريك بارنيل) ؟ »

لم يكن هنا .. ونظر لى القوم فى دهشة ، فقلت بنفس الصوت العالى :

ـ « أقترح أن تحرسوه جيدًا .. لو حدث له شىء فنحن أبرياء من دمه ! »

سألنى رجل الشرطة فى دهشة :

ـ « ماذا تقول بالضبط ؟ »

ـ « أعتقد أن كثيرين منكم خمنوا ما أعنيه .. كل هؤلاء الذين ماتوا كانت لهم علاقة ما بموت (رونيل السوداء) .. أنتم تعرفون القصة وتذكرون التفاصيل .. لا أعرف كل من تورط فى هذه القصة ، لكن المرشح رقم واحد للموت الآن هو (باتريك بارنيل) .. حفيد قاضى الساحرات الرهيب ! »

* * *

7 ـ أسطورة المقبرة ..

لم يكن البقاء فى غرفتى سيئًا .. أنتم تعرفون أننى حريص على كل نشاط بشرى يحرمنى مخالطة البشر ! لكن (ماجى) .. الشعور من جديد بأنها ستنفد .. لو عرفت تلك الطفلة (إليانور) كم هى مجدودة الحظ ..

قضيت الوقت أصغى للمذياع ، وأكتب بعض الملاحظات عن المؤتمر الأخير الذى حضرته ..

فتحت الستائر لأرمق الظلام فى الخارج .. هل هذا غراب الذى يقف على تلك الشجرة البعيدة ؟ هو كذلك ، ولا أنفى لحظة أنه يبدو لى كمن يراقب نافذتى .. أنا عصبى وقد اعتدت هذه الأمور .. أنا هستيرى مجنون ولن أترك ملحوظة كهذه تدمر أعصابى ..

ثم تسرب النوم إلى جفونى لا أدرى كيف ، فدخلت الفراش المريح الدافئ .. الذى يحتضنك احتضانًا .. وكان للدفء الكلمة الأخيرة قبل الإرهاق ...

إننى ...

★ ★ ★

فى الثالثة صباحًا سمعت القرعات على بابى ، فنهضت .. تعثرت فى الغطاء السميك طبعًا وأطلقت الكثير من السباب إلى أن وجدت الباب .. وفى اللحظة ذاتها كان المفتاح يدور فيه من الخارج ، فلاتنس أننى حبيس هنا ..

هناك كان رجل الشرطة الأحمق (بيرك) ومعه مسز (بانكروفت) التى بالفعل صارت عيناها خارج جمجمتها .. وعرفت على الفور أن كارثة حدثت ..

ـ « كارثة حدثت يا سيدى .. »

ـ « إننى أرتجف قلقًا .. »

ثم سمحت لهما بالدخول وبحثت عن الروب .. ثم جلست على طرف الفراش وتثاءبت كفرس النهر .. بينما قال الشرطى عديم الكفاءة :

ـ « لقد توفى السيد (باتريك بارنيل) .. لقد كنت محقًا يا سيدى .. »

أدرت الخبر فى فمى لأتذوقه جيدًا .. هذا الرجل لطيف المعشر الذى راح يكلمنا كأننا صديقان قديمان له ، والذى عرفت منه كل تفاصيل هذه القصة قد مات ..

ـ « كيف ؟ »

صمت الرجل وشهقت المراة .. مما جعلنى أعرف أنه مات بطريقة لا يمكن سردها .. أشياء كهذه لا تقال للأطفال مثلى ..

ثم إن الشرطى قال وهو ينهض :

ـ « أعتقد أنه لم يعد من داع لهذا السجن .. يمكنك الخروج إذا أردت يا سيدى .. »

فى هذه اللحظة ظهر رتل من الرجال الذين لا أعرفهم على الباب .. لكنهم كانوا غاضبين كالجحيم .. كانوا يريدون تدمير أى شىء أو قتل أى واحد .. يبدو أن المنظر أثار حفيظتهم بحق .. وهنا رأيت من جديد الدليل القاطع على ما يروونه عن حدة طباع الأيرلنديين .. أنا جربتها وكدت ألقى حتفى لو كنتم تذكرون قصة اللهب الأزرق والأخ (شاكال) ..

فيما بعد عرفت تفاصيل موت الرجل ـ (بارنيل) لا (شاكال) طبعًا ـ ولن أحكيها بالتأكيد .. لكنها كانت جديرة بصاحب أعظم جرم بالنسبة لـ (رونيل السوداء) .. إن حفيده تلقى العقاب كاملاً غير منقوص .. ويكفى القول إن الطبيب فقد وعيه حين رأى المشهد ، وأن الرجل ذا الكلمة المسموعة إياه فى حالة هستيرية الآن ..

قلت وأنا أقف أمام الباب :

ـ « مس (بلاك) ؟ »

- « ليست هنا .. إنها لم تعد فى الخان قط منذ اتفقنا على تحديد إقامتكم .. نعتقد أنها غادرت غرفتها من النافذة .. »

وقالت مسز (بانكروفت) :

- « لا أكتمك سرًا أننا فتشنا أوراقها .. لم نجد قصصًا على الإطلاق .. كانت هناك صفحات ملأى برموز غريبة كالتى تستعمل فى السحر .. مئات العبارات اللاتينية التى تجمد الدم فى العروق .. تلك الفتاة ليست طبيعية .. »

فكرت فى المعلومة بعض الوقت ، ثم قلت للرجل :

- « هل معك قلم ؟ »

ناولنى قلمًا من الرصاص فى تردد ، فأمسكت به وبخط كبير واضح كتبت على الجدار : LOREANE ..

صاحت مسز (بانكروفت) فى غضب :

- « بحق السماء .. ماذا تحسب أنك فاعل ؟ »

لم أرد ، وهتفت فى القوم :

- « كيف تتهجون اسم تلك الساحرة التى حرقها أجدادكم ؟ RONAELE ؟ »

هنا صاح أحد الأذكياء :

- « حقًا .. نفس الأحرف .. ونفس الرنين فى الأذن .. وكلاهما سوداء .. (بلاك) .. »

هنا بللت طرف منديلى بلعابى ، ورحت أزيل الدمار الذى أحدثته فى جدار الخان كى لا تقتلنى صاحبته ..

نظرت لى مسز (بانكروفت) فى حدة ، وسألت :

- « هل تحاول التلميح إلى أن الساحرة عادت اليوم لنا فى ثوب تلك الفتاة من (شيفلد) وأنها تنفذ انتقامها ؟ كيف ؟ هل غادرت قبرها ؟ هل حلت روحها بتلك الفتاة ؟ كلها افتراضات لا تقبل .. »

وقال واحد من الواقفين :

- « ولماذا اليوم بالذات ؟ لماذا تنتظر ثلاثمائة عام ؟ »

- « يمكنك أن تسألها .. »

ثم أردفت وأنا أشعر بإرهاق شديد من فرط هذا الجهد العصبى :

ـ « الفتاة تكمل بالضبط ما كانت (رونيل) تفعل .. الشخص الوحيد الذى وثقت به هو الفتى (أونيل) ولا أشك فى أنه حفيد (أونيل) القديم الذى كاد يلقى بنفسه فى النيران من أجلها .. ثم يموت حفيد القس الذى شك فيها .. وحفيد الحاكم .. وحفيد القاضى الذى أمر بحرقها .. وحفيد الثرى الذى كان يحبها ، والذى ربما كان له دور فى إدانتها .. لا أعرف كل من تورط فى هذه القصة ، لكن (رونيل) عادت .. أنا متأكد من هذا .. وانتقامها شامل ماحق .. والمشكلة هنا أن من ماتوا حتى الآن هم الورثة الوحيدون لأسرهم ، فماذا عن الأسر التى تفرعت وتشعب أحفادها ؟ »

ساد الصمت ثم تساءل أحد الرجال :

ـ « والحل ؟ »

ـ « أرى أنه لابد من نبش قبرها .. أعتقد أن الجواب الصحيح يكمن فى المقبرة .. »

كان الرجال بحاجة إلى أى شىء يبدد طاقاتهم الثائرة ، لهذا تصايحوا فى حماسة كأنما أدعوهم إلى السيرك :

ـ « المقبرة .. نعم .. المقبرة !! »

ـ « فى الصباح يمكننا أن ... »

لكنهم لم يكونوا على استعداد للانتظار حتى الصباح ..

مشكلة الأيرلنديين الغاضبين هى أنهم لا يسمحون لكهل مثلى بالنوم ..

وسط الزحام رأيت (ماجى) تشق طريقها بوجه ممتقع ، وقد حملت الطفلة متمسكة بعنقها .. بدا لى المشهد غريبًا لأننى لم أر طفلة تحمل طفلة قط .. ثم إن (إليانور) لم تكن رضيعة بالتأكيد ..

قالت لى همسًا :

ـ « أنت قلت نفس ما أفكر فيه .. لكن ما كان يجب أن تقوله علانية .. »

ـ « ولِمَ لا ؟ »

ـ « رد الفعل الجماهيرى غير المنضبط .. أنت كمن يفتح قمقمًا فيه جنى حبيس .. لو أنهم قابلوا الفتاة الآن ؛ حتى لو كانت بريئة لأطاروا عنقها بلا مناقشة .. السبب الأهم هو أننى متأكدة من أن عددًا من هؤلاء القوم يعرف ما تتكلم عنه .. ربما كان يرقص حول المقبرة فى تلك الليلة .. أكره البارانويا لكن الحذر واجب .. »

اعترفت فى خجل بأنها محقة لكن العجلة دارت .. من العسير ابتلاع الكلمات ..

وفى هياج ـ كتنين أسطورى هائل عقله فى قدميه ـ تحرك الجمع نحو المقابر ..

قلت لها :

ـ « أغلقى بابك بإحكام وكونى حذرة .. ربما كان من الحكمة أن تنزلى لتقضى الوقت مع مسز (بانكروفت) .. »

* * *

فى ضوء المشاعل يبدو المكان بهيجًا ..

عشرات الناس والمشاعل التى تشبه (الكلوبات) فى سوق الخضار عندنا ، وكشافات نيون وكشافات عادية تعمل بالأحجار الجافة .. غبار .. عرق .. زحام ..

لقد خضت هذا الموقف مرارًا من قبل ومن بعد ، بحيث يبدو لى الآن أننى قضيت عشرة أعوام من عمرى وسط أناس ينبشون قبرًا ما ..

كنا جميعًا نتجه إلى المكان الذى لن أنساه ما حييت ..

القبر الوحيد الباقى والذى لا يحمل شاهده أى اسم ..

ربما كانت هناك قبور أخرى لكن لا أحد يذكر مكانها ..

أين حارس المقابر ؟ كان هناك وسط الزحام وقد تحول إلى فزاعة من فعل الكحول .. يصعب على أن أصدق أن هذا الرجل لم يذق الخمر من قبل ..

وقفنا هناك .. وكانت الأعشاب تغطى الشاهد ، فيما عدا ما قمت بإزاحته حين كنت مع (ماجى) .. وبدأت المعاول والأظفار تعمل ..

بدأ التراب يتراكم .. وعرفت أنها مدفونة من دون تابوت ولا كفن على سبيل الانتقام ..

أخيرًا بدأت معالم الحفرة تتضح ..

وتكأكأ القوم حول الحفرة كل يحاول أن يجد موطئ عين .. وشعرت بأننى أختنق .. الكل يدفعنى إلى الحفرة ، وتساءلت فى سرى : ألا يستحم هؤلاء القوم ؟

عظامٌ .. عظام بالية نخرة مفتتة ..

تلوت : « كل نفس ذائقة الموت » ، ثم جثوت على ركبتى أتفحصها ، ورفعت عينى فوجدت الدكتور (أوجليفى) جاثيًا جوارى يتفحص العظام بدوره فى ضوء كشاف ..

ـ « ما رأيك أيها الزميل ؟ أى !! »

قالها وهو يتلقى كوعًا فى كتفه .. فقلت بينما ركبة صلبة تضربنى فى مؤخرة رأسى :

ـ « مثل رأيك .. آى !! هذه العظام محترقة وتتمشى مع القصة .. لا أعرف عمرها لكن لا أستبعد أنها دفنت هنا منذ ثلاثمائة سنة .. »

هكذا أعلن على الناس أن الجثة فى مكانها .. الساحرة لم تغادر القبر لتلتهم حناجركم يا شباب فاطمئنوا !!

كنت أنا شارد الذهن أفكر .. ما معنى تلك الزيارات الليلية إلى هذا الموضع إذن ؟ طبعًا أنا لم أتوقع

لحظة أن تنهض الجثة من قبرها لأن هذا مستحيل .. فمن هى (لورين) إذن ؟ لا أقبل كذلك قصة التناسخ. ماخطر لى هو أن هناك من سرق الرفات من أجل عمل سحرى ما .. لكن من الواضح أن هذا لم يحدث ..

هنا توقف الطبيب الأيرلندى الأصلع وقال :

- « هذه العظمة .. آى ! ما رأيك فيها ؟ »

نظرت إلى العظمة وفهمت ما يعنيه ..

سألته :

- « فى أى سن هلكت (رونيل السوداء) ؟ »

- « كانت قد تجاوزت العشرين .. »

وكانت العظمة التى يحملها لاتحتمل الشك .. هذه عظمة طفل .. الخط الكردوسى واضح تمامًا وحجم العظمة نفسه واضح لكل طفل ..

هذه الرفات ليست رفات (رونيل السوداء) ...

* * *

8- المؤامـــرة ..

على ضوء الفجر البكر حيث وضعنا العظام على ملاءة ، أمكننى الآن التأكد من أننى كنت مخطئًا فى البداية .. فعلاً هذه عظام طفل ..

صاح أحد الرجال فى عصبية :

- « من فضلكم لاتقولوا إنها فتحت القبر وذهبت .. »

قلت فى هدوء لأمتص غضبه :

- « لاشىء من هذا .. هناك من أخذ العظام لغرض ما .. ربما ليدفنها فى قبر أفضل أو من أجل طقوس لانعرفها .. »

ثم تنهدت ونظرت إلى الساعة .. إنها السابعة صباحًا .. لقد استغرقت كل هذه الأحداث أربع ساعات .. وأنا جائع وموشك على التجمد .. قلت لهم إن الوقت حان للعودة إلى الخان وترتيب الخطوات التالية ..

ومشى الموكب عائدًا فى ضوء النهار الخجول الذى لايجرؤ على أن يفصح أنه نهار ...

من بعيد كان الخان ، وقدرت أننى سأغسل وجهى وأصلى وأتناول الإفطار ، ثم أنام عشر سنوات فى الفراش الدافئ حتى توقظنى الساحرة لتخبرنى بأن الدور دورى ..

لكن الجو لم يكن مريحًا .. فى البداية وجدنا أن مسز (بانكروفت) ليست هناك .. ثم صعدت إلى الطابق الذى أقيم فيه ، فوجدت أن باب غرفة الفتاة مفتوح عنوة ..

هناك من اقتحمه .. كنت وحدى الآن فلم أستطع طلب عون ، لكن القصة واضحة .. لقد عادت أو عاد كى يأخذ الأوراق التى هى بالتأكيد مهمة جدًا ، وكان غضبها مستطيرًا حين وجدت أنه لاشىء منها فى الغرفة ..

و ... (ماجى) !!

هرعت إلى غرفتها وكانت المصيبة التى توقعتها .

إن الباب مفتوح ..

اقتحمت الغرفة لأجدها نائمة على الفراش بكامل ثيابها .. ليست هذه نومة استرخاء أو نومة من قضى الليل ساهرًا .. سقط قلبى فى قدمى ودنوت منها فى حذر .. بسبب ارتباكى فشلت فعلاً فى أن أرى إن كان صدرها يعلو ويهبط أم هو ثابت كالحجر ..

لكنها كانت تتنفس ..

بالحقيقة تتنفس ..

جوار الفراش جثوت وأنا أغالب دموعى .. حمدًا لله .. للمرة الأولى أفطن إلى أن (ماجى) كائن حى يعيش ويموت وليست رمزًا .. كنت أحسبها كالعدل أو الحقيقة .. هل رأيت يومًا جثة عدل أو أشلاء حقيقة ؟

فى النهاية فتحت عينيها وكانتا حمراوين كالدم ..

لاداعى للمزيد من البحث .. هاتان عينا إنسان يفيق من مخدر ..

بالمناسبة أنا لا أرى الطفلة من حولها ..

هتفت من بين شفتين التصقتا من القشور :

- « إليانوووووووور »

كما توقعت بالضبط ..

جلبت بعض الماء وسقيتها إياه .. ثم سكبت الباقى على وجهها .. وماء أيرلندا بارد .. بارد ..

أخيرًا جلست فى الفراش وراحت ترمش بعينيها فى بلاهة ، ثم سألتنى من جديد :

- « أين (إليانور) ؟ »

- « حسبتك أقدر منى على الإجابة عن هذا السؤال .. »

نهضت من الفراش فى حزم صائحة :

- « خطفوها ! »

القصة كما حكتها لى هى أن المسز (بانكروفت) جاءت فى الخامسة صباحًا تقرع الباب .. قالت لها إنها

راغبة فى إخبارها بشىء مهم .. وهكذا لم يكن هناك من مبرر لإبقاء الباب موصدًا .. فتحته فدخلت المرأة ذات الشعر المعقوص .. قالت لها كلامًا كثيرًا عن خوفها من أن تكون هى الضحية التالية .. ربما لأن جدة جدتها كانت فى تلك القصة المشئومة ..

طمأنتها (ماجى) .. وكانت الطفلة نائمة فى الفراش فلم تسمع شيئًا من المحادثة .. إلا أن (ماجى) نهضت إلى الحمام كى ...

وهذا آخر ما تذكره من القصة ..

حدث أى شىء .. على الأرجح منديل مبلل بالكلوروفورم على الأنف أو شىء من هذا القبيل .. بعدها وجدت نفسها فى الفراش وأنا أوقظها كالكابوس ..

- « هذا يعنى أن مسز (بانكروفت) متواطئة .. كنت أعرف أنها تبدو كساحرة .. »

- « أنت قلت لى أن أثق بها وأمضى الوقت معها .. »

- « أنا قلت هذا ؟ إذن كنت حمارًا .. ما علينا .. »

قالت وهى مازالت متحشرجة الصوت ، ويبدو أن رأسها مازال غير ثابت :

ـ « ربما لم يكن لها دور .. ربما هوجمنا معًا .. »

ـ « وهذا يجعلنا نتساءل أين هى ؟ وأين الطفلة ؟ »

كنت أتمنى أن أقول إن هذا خبر طيب لى ، لكننى لست بهذه القسوة طبعًا .. لقد اختطفت الطفلة وبيد أشخاص لم يبد حتى هذه اللحظة أن فى قلوبهم أدنى ذرة من الرحمة .. إنّ من يرجئة (بارنيل) يعرف جيدًا معنى ما أقول ..

قالت فى توتر وهى تتجه إلى الباب :

ـ « سأعرف حالاً .. أقسم لك إننى لن أغادر هذه البلدة إلا وهى معى .. وأنت .. »

ثم نظرت فى عينى وهمست كأنما تذكرت شيئًا :

ـ « للأبد ؟ »

كانت تقولها من دون هيام ، بل فى توتر .. كأنما تستوثق من أننى لم أتغير بعد ، أو تطمئن على أن أسلحتها محشوة .. قلت لها :

ـ « ماذا ؟ »

ـ « ستكون ملكى للأبد ؟ »

ـ « وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى ... »

ثم توقفت .. هذه المرة لأن رجل الشرطة الأحمق اقتحم الغرفة .. وهتف إذ رآنى :

ـ « أين مسز (بانكروفت) ؟ »

ـ « هذا ماكنا نتكلم فيه حين دخلت دون استئذان .. »

وبسرعة حكيت له القصة فازداد شاربه كثافة وتقلص وجهه كأنما يموت .. ثم ابتلع ريقه وقال :

ـ « هناك امرأة ماتت فى البلدة هذا الصباح .. لا .. ليست مسز (بانكروفت) .. ماتت بنفس الطريقة الشنيعة .. هذه المرة طار عنقها من على كتفيها ، لكننا لانعرف شيئًا عن علاقتها بالقصة .. »

قلت فى ملل :

– « لا بـد أنهـا من أخـبر القـس .. كـى يخـبر (كيلبيارون) بأن ... إلى آخر هذا الهراء .. »

أضاف بنفس اللهجة الخطرة :

– « الفتى (أونيل) كذلك اختفى .. »

– « المختفون أكثر من اللازم فى هذه البلدة .. هل تعنى أنهم غادروها ؟ »

– « بل على الأرجح هم مختفـون فـى مكـان مـا .. إن (أوليفر كليباتريك) لم ير أحدًا يخـرج من البلـدة منذ أمس .. إن (أوليفر كليباتريك) هو ... »

– « نعم .. نعم .. هو رجل يمكنـه أن يعرف من غـادر البلـدة .. وفـر شـرح ما لا طـائل وراءه .. وهـل فى بلدتكم مخابئ ؟ »

فكر قليلاً وهو يعتصر شفته السفلى كأنما ليمزقهـا ، ثم قال :

– « هناك الكنيسة بدهاليزها الخفية .. هناك القلعة .. هناك كهفان .. »

ضربت (ماجى) بكفهـا علـى صدغهـا كأنمـا تلطـم وهتفت :

– « يا إله السماوات ! يمكن إخفاء كتيبة من الجيش الرومانى فى تلك الأماكن .. نحن لن نجد هؤلاء أبدًا .. »

قلت لها فى ثبات نافشًا صدرى :

– « لكننا سنبحث فيها جميعًا .. فقط أريد دقائق كى أدخل غرفتى وأستعيد كيانى .. لسوف يكون يومًا طويلاً .. »

قلتهـا بلهجـة أبطـال الروايـات شـديدى المـراس ، ودخلت إلى حجرتى ، ثم نمت .. نمت وأنا أستند إلـى حوض غسيل الوجه .. ثـم نمت حين خرجت .. ثم نمت وأنا أقول لنفسى إننى لن أنام ...

* * *

ظهرت بعد ساعة ونصف متظاهرًا بالانتعاش .. وكان الجميع جالسين فى قاعة الجلوس ، وقد جلست (ماجى) جوار رجل فى الخمسين من عمره ممن يعرفون ما يفعلونه ، وقد فردوا على المنضدة خارطة مرسومة بالقلم الأسود العريض للبلدة .. ورأيته ينظر إلى مجموعة من الرجال الأشداء يرتدون سترات ثقيلة ويحملون العصى :

- « (رايان) و(أوليفر) .. الكنيسة .. القبو (ج) .. »

وانطلق الرجال .. هنا فهمت أنهم يشكلون فرقًا للبحث .. إنهم أشداء فعلاً وأحمد الله على أننى لست تلك الفتاة (لورين بلاك) ..

وجدت مقعدًا جوار المنضدة فجلست ، وكانت هناك قهوة مددت يدى لها دون أن أسأل من شرب منها .. نظرت (ماجى) لعينى الحمراوين ففهمت على الفور النشاط الذى كنت أمارسه ، وابتسمت فى رفق ابتسامة عصبية سريعة .. تذهلنى قوة تحمل النساء أحيانًا ..

إنهن لا يملكن قوة جسدية لكنهن يتحملن الأوضاع الصعبة أكثر منا نحن الرجال بمراحل ، وعلى قدر علمى هى لم تنم أمس إلا قدر ما نمت أنا : لا شىء تقريبًا ..

قال لى الرجل الذى يعرف ما يجب عمله :

- « دكتور .. هلا انتحينا جانبًا ؟ أريد كلمة معك .. »

نظرت له فى عدم فهم ، ثم نهضت واتجهنا إلى ردهة جانبية تقود إلى السلم .. كان كما قلت فى الخمسين ، ضخم الجثة مما يوحى بأنه رياضى قديم .. ذلك الترهل القوى الذى يميز من كانوا يمارسون رياضة عنيفة ثم توقفوا ، وكأنه حليق الوجه بعناية وله عينان ثاقبتان ..

أشعل لفافة تبغ غليظة ، وقال لى :

- « لقد سمعت القصة من الآنسة .. هناك كما فهمت جماعة سرية تحاول إعادة (رونيل السوداء) إلى البلدة .. إن الآنسة لم تحك قصتها مع المقبرة إلا الآن .. »

- « هل تعتقد أن الجماعة مازالت تحاول ؟ أعتقد أنها نجحت .. وإلا فمن هى (لورين) ؟ وما سر حالات الوفاة هذه ؟ »

- « لن نعرف أبدًا .. ربما كان الانتقام مطلوبًا كى تستطيع الساحرة العودة .. »

- « هذا يضعنا فى مأزق آخر .. كيف عادت ؟ هل غادرت قبرها ؟ هل مست تلك الفتاة (لورين) ؟ »

قال من جديد :

- « لن نعرف أبدًا .. لكن هناك شيئًا مؤكدًا يجب أن تعرفه ولاتخبر به الآنسة .. لأنها لو عرفت لفقدت صوابها .. الطفلة فى خطر داهم .. ولربما انتهى هذا كله »

- « لماذا ؟ »

- « لأن (رونيل السوداء) كانت تلتهم الأطفال .. ألم يخبرك أحد بهذا ؟ »

وتصلبت .. واستندت إلى الجدار ..

كانت المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الجزء ..

هذا جزء لم يخطر لى ببال قط ..

* * *

9ـ أين هـم ..

كان الفريق الذى ضمنى الرجل إليه مكلفًا بتفقد كهف عتيق على حدود البلدة ..

وقررت فى هذه المرة أن آخذ (ماجى) معى فى كل خطوة .. لن أمارس من جديد سيناريو (لقد ـ نسينا ـ الآخرين ـ وانشغلنا ـ بوهم) ..

عند الظهيرة وصلنا هناك .. ظهيرة (أيرلندا) الباردة الشبيهة بالغروب عندنا .. وكان الكهف يقع فيما يعد جغرافيًا جزءًا من مرتفعات (إريجال) .. يرتفع عن الأرض حوالى سبعة أمتار ، وهو ما يجعله من الكهوف المرعبة بالنسبة لى .. كانوا قد وضعوا حبالاً تغلق مدخله كى لايدخله الأطفال ، وبدا لنا أن هذه الحبال لم تمس ..

فى الداخل على ضوء الكشافات كان المشهد مروعًا .. الرائحة عطنة أقرب إلى الماء الآسن .. وكان الماء بالفعل يتساقط من هوابط السقف ..

هناك وطاويط انتظرت لحظة ثم هرعت تفر من المكان وقد تضايقت من هذا الإزعاج ..

شعرت بيد (ماجى) النحيلة تضغط على يدى .. فضغطت أكثر ، وإن كنت أعرف جيدًا أنه لايوجد شىء مقلق هنا .. ليس الأمر بهذه السهولة .. ولو قابلنا السحرة فلن يكون هذا وسط كل هؤلاء الرجال الأشداء .. حين تقابل السحرة سيكون هذا بشروطهم فى أسوأ ظروف ممكنة .. وأنت وحدك تمامًا أعزل كطفل رضيع ..

يجب أن أقول هنا إن (ماجى) ـ وهذا من حقها ـ تغيرت تمامًا .. لم تعد تملك أى رُوح دعابة .. صارت عصبية متوترة مكتئبة كالبومة .. إنها تحب الطفلة حقًا ..

رحنا نفتش فى الكهف الذى كان عميقًا .. لكن لم يكن هناك شىء .. وضايقنى أنهم يضيعون وقتًا أكثر من اللازم فى إثبات حقيقة واضحة من اللحظة الأولى ..

فى النهاية قال قائدنا لاهثًا :

ـ « لا احتمالات للخطأ .. هؤلاء القوم ليسوا هنا .. »

ـ « أخيرًا ! »

وقالت (ماجى) وهى تحكم إغلاق سترتها على رأسها :

ـ « لنعد إلى الخان .. فلعل الآخرين ظفروا بحظ أفضل .. »

* * *

يمكن دون جهد كبير أن تصف اجتماعنا فى الخان مرهقين ، تجمدت عروقنا ، بردًا ، بأنه (مجمع الخائبين) .. وكان الخان قد تحول إلى غرفة عمليات بالفعل ، والنسوة رحن يعددن القهوة الساخنة للرجال العائدين الذين لم يجدوا شيئًا .. كما شممت رائحة تدل على أن هناك حساء يتم إعداده .. لو أن المسز (بانكروفت) مازالت حية فلابد أنها كانت ستموت لو رأت ما حل بالخان الأنيق الجميل ..

لقد بدا الأمر كأن عشيرة من ثيران المسك اتخذت سكناها هنا .. الأحذية على المناضد والدخان فى الهواء .. رماد التبغ على البساط والعلب الفارغة فى كل مكان .. هناك من يبصقون على الأرض لكنهم قلة لحسن الحظ ..

لكننى كنت سعيدًا .. برغم كل شىء كنت سعيدًا ..

أنا وأنت هنا .. فى هذا الموضع الدافئ بينما العاصفة تزأر بالخارج .. أنا وأنت هنا نواجه نفس الخطر ونفكر فى الأشياء ذاتها .. ما يهددك يهددنى وما يطمئنك يطمئننى .. فلتزأر العاصفة .. فلتزأر العاصفة ..

إن الليل يقترب بسرعة دون نتائج ..

لم نجد أثرًا للطفلة ولا الفتى (أونيل) ولا العجوز (بانكروفت) ولا الفتاة (لورين) ..

قال الرجل الذى يعرف ما يجب عمله :

ـ « لماذا لم يصل رجال البحث الجنائى هؤلاء ؟ إنهم أقدر على حل كل هذه الألغاز .. »

ثم نظر حوله وهتف :

ـ « هل الجميع هنا ؟؟؟ لانريد أن نترك خلفنا أحدًا .. »

تقريبًا كانت البلدة كلها هنا .. لاتنس أن هذه البلدان قد يكون تعداد سكانها مائتين أو ثلاثمائة .. لسنا فى مصر هنا حيث يبلغ تعداد مدينة واحدة دولة أوروبية بأكملها .. لكن بالتأكيد هناك مواطن واحد قد نسيناه ، وهذا الواحد ميت الآن بطريقة بشعة ..

ساد الصمت ورحنا نصغى لصوت الريح بالخارج والنار فى المدفأة التى أشعلتها النسوة .. وجاءت فتاة شقراء متجهمة الوجه كبيرة اليدين تحمل دلوًا فيه مغرفة .. وصبت لى بعض الحساء الساخن فى طبق ووضعته أمامى ، ثم تركتنى لتفعل الشىء ذاته مع (ماجى) .. ذكرنى مظهرها بساعة توزيع (اليمك) فى السجون .. نفس الدلو وأقسم على هذا .. صرنا كأننا فى معسكرات الإيواء بعد الكوارث .. أما عن

الحساء نفسه فقد اعتدت حساء اليورانيوم فى كل أوروبا فلم يعد يثير اشمئزازى .. لكن ماذا عن حساء الأحذية ؟

راحت (ماجى) ترشف الحساء شاردة الذهن ..

فجأة هتفت وقد تذكرت شيئًا :

ـ « لحظة .. هناك كهف فى المقابر .. قربها لا أدرى .. الكهف الذى وجدوا فيه حلجيات تلك الفتاة (لورين السوداء) كما حكى لنا السيد (بارنيل) .. هل رأيتم هذا الكهف ؟ »

قال الرجل الذى يعرف ما ينبغى عمله :

ـ « لا أحد يذكر مكان هذا الكهف .. على قدر علمى قد اندثر منذ زمن .. »

ـ « وعلى قدر علمى الكهوف لاتندثر بل تتوارى فتحاتها .. البلدة لم تشهد زلازل قط .. »

تبادل رجلان النظرات ، ثم قال أحدهما وهو يضع طبق الحساء جانبًا :

ـ « ربما يعرف (إدوود) شيئًا عن هذا ؟ »

قال الرجل الذى يعرف مايجب عمله :

ـ « ليكن .. (أونولان) و (رايان) و (أوليفر) .. إذهبوا لتروا (إدوود) لو كان مازال حيًا .. خذ معك مايلزم يا (رايان) .. »

هنا وضعت حسائى بدورى .. وأشرت لـ (ماجى) أن تنهض معى .. هذه المرة سيكون هذا الكهف مهمًا بحق .. لو كان له وجود ..

ـ « خذوا المشاعل .. ولا بأس من السلاح .. »

وارتدينا السترات الثقيلة والقفازات .. هذه المرة لم يعد من مجال للخجل ، لذا وضعت على رأسى القلنسوة الصوفية التى كانت عندى ولم أجسر على ارتدائها قط .. القلنسوة ذات أذنى الحمار التى تذكرك بالشيالين فى شونة غلال (أبو كبير) .. إنها تجلب الكثير من الدفء ، لكنها لاتترك لك شيئًا من الوقار أو عزة النفس .. رأتها (ماجى) فلم تملك برغم اكتئابها إلا أن تقول :

ـ « باتمان ! »

كان متاع الرجل حقيبة حملها (رايان) على ظهره ، وغادرنا الخان ، وكانت الساعة الثامنة مساء ، لكن كل شىء يوحى بأنها الساعة الخمسون مساء ..

وركبنا سيارة عتيقة اتجهت بنا إلى المقابر عبر شوارع باردة لكنها جافة لحسن الحظ ..

المقابر جاثمة فى الظلام كالكابوس ، ومن بعيد شبح الكنيسة .. لايوجد قمر هذه المرة .. لكن الأفق يتألق بضوء غريب كأنه النذير .. أعتقد أنها ظاهرة فيزيائية فى شمال أوروبا كثيرة كالذباب .. ليس الشفق القطبى أغربها ..

هناك اتجه أحدنا إلى الغرفة التى يقيم فيها حارس المقابر وقرع الباب .. كنت أعرف يقينًا أننا سنجده قد مات .. لماذا ؟؟ لأننى أعرف مايكفى من هذه القصص ..

لكن ـ وهذا غريب ـ الرجل فتح الباب .. يبدو أننى صرت أثق بنفسى أكثر من اللازم هذه الأيام .. هل

تذكرون مراحل قيادة السيارات الأربع ؟ المرحلة الأولى أنت أخرق ترتكب الكثير من الأخطاء .. المرحلة الثانية لاترتكب أخطاء لكنك لاتستطيع تلافى أخطاء الغير .. ثم تتعلم كيف تتلافى أخطاء الغير كذلك .. المرحلة الرابعة أنت واثق بنفسك تعتقد أنك أفضل من يقود سيارة على وجه الأرض .. عندئذ .. طاخ !! أى .. إن أكثر الأخطاء ـ فى كل شىء ـ تحدث من معدومى الخبرة ومن الواثقين بأنفسهم أكثر من اللازم !

كان (إدوود) يترنح .. ليس هذا جديدًا .. وقد أصغى إلى سؤالنا لبرهة ثم قال :

ـ « كهف (رونيل السوداء) ؟ هناك شىء كهذا لكن المكان خطر .. لا أنصحكم بأن ... »

ـ « دع نصائحك وقدنا إليه .. »

هكذا مشى الرجل ونحن خلفه بين شواهد المقبرة .. مكان رهيب فعلاً ويثير الخيال .. تعرفون الملصق الشهير

ليد تخرج من القبر لتمسك بساق المار فوقها ؟ حسن .. لم تبد هذه الفكرة بذات الغرابة وقتها ..

أخيرًا وصلنا إلى أطراف المقبرة حيث السهل الخالى المقفر ..

كان هناك تل صغير ارتفاعه خمسة أمتار .. وكانت هناك شجيرات تكسو أسفله ..

ـ « هنا بالضبط .. »

ـ « كيف ؟ »

ـ « ليس هذا من اختراعى .. كنت منذ طفولتى أعرف أنه هنا ، لكننى لم أضطر لاستكشافه قط .. إنه مجرد تجويف فى مرتفع لا شىء فيه يثير ... »

ومد يده وبدأ يزيح الشجيرات ـ التى لم تكن كلها ذات جذور فى الأرض ـ على ضوء الكشاف .. بالفعل كانت هناك فتحة فى الصخر .. هنا هتفت أنا غير فاهم :

ـ « هذا يعنى أن هذا الكهف خال .. ما كان أحدهم ليغطيه بالشجيرات بعد أن يدخل .. »

قالت (ماجى) وهى تسلط الكشاف على الأرض :

ـ « لا يا (رفعت) .. واضح أنهم كثير .. هناك من دخل ، ومن بقى بالخارج ليغطى المدخل بالشجيرات المتشابكة .. »

كانت آثار الأقدام على الأرض تحكى قصة واضحة ..

ـ « هل ندخل ؟ »

هتفت (ماجى) فى عصبية :

ـ « هل تمزح ؟ لو كان هناك احتمال واحد فى المائة أن (الياتور) هنا فلسوف أدخل .. »

كان معنا ثلاثة رجال أشداء .. أعتقد أن الواحد منهم يستطيع تهشيم أعناق أربع ساحرات .. وكان أحدهم مسلحًا ببندقية .. ثم إننى لست عاجزًا .. أحيانًا أستطيع توجيه ركلات قوية إلى قصبات الأرجل ، بشرط أن تعطينى المساحة الزمنية والمكانية .. لا أرى ما يمنع من أن نجرب الآن ..

صاح حارس المقابر وهو يتراجع للوراء :

ـ « أما بعد هذا فلا أعرف .. أنا لم أعد ذا نفع لكم فاسمحوا لى بالانصراف .. »

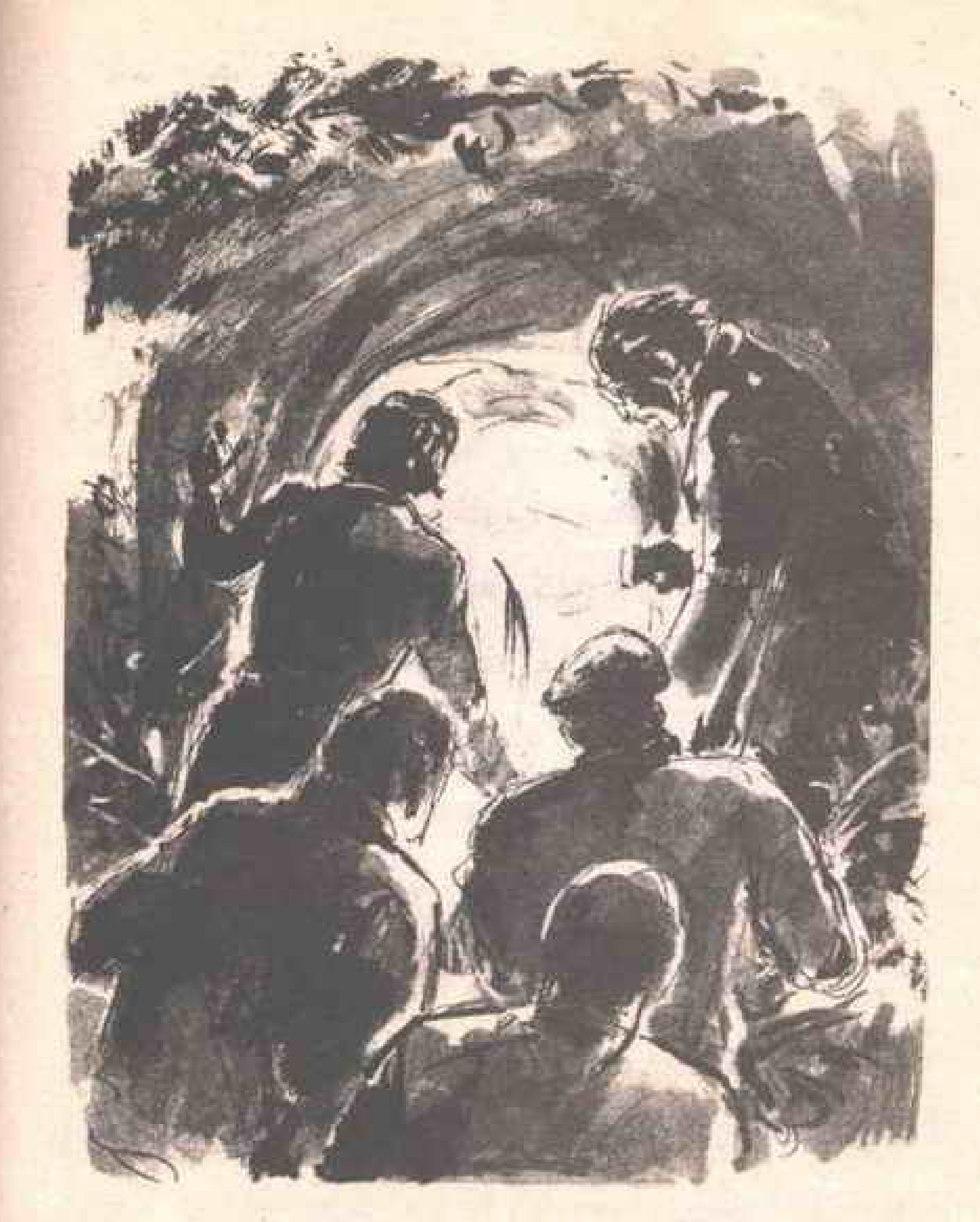
ثم انطلق يركض بين الشواهد .. رحنا نرمقه ونتمنى أن يسقط فيدق عنقه ..

وعلى ضوء كشاف وكلوب ، رحنا نعالج الشجيرات حتى كشفناها كلها .. بالفعل كان أكثرها مجرد تعمية (كاموفلاج) كالتى يستعملونها فى الجيش ..

أخيرًا بدا لنا مدخل الكهف .. كأنما هو فم الموت الفاغر ..

وأخذنا شهيقًا عميقًا ثم دخلنا ..

* * *



أخيرًا بدا لنا مدخل الكهف .. كأنما هو فم الموت الفاغر .. وأخذنا شهيقًا عميقًا ثم دخلنا ..

10 ـ الداخـل ..

كان هناك ممر طوله نحو خمسة أمتار ..

مشينا فيه .. ولم يفتنـا أن نرى بعض قطع العظـام مدفونة فى الأرض .. عظام أطفال على الأرجح ..

وشعرت بـ (ماجى) تتنفس بعمق من طاقتـى أنفها .. كدت أحطم رأسها لأننى لا أطيق هذا الصوت بالذات .. كانت منفعلة ولهذا اعتقدت أن من حقها أن تتحول إلى صافرة سفينة ..

فى نهايـة الممر كـان هنـاك بـاب مـوارب .. بـاب عبارة عن قضبان حديدية .. كأنه باب قفص .. ولم يكن مغلقًا .. كان جنزير معلقًا جـواره وقد ثبت فيه قفل مفتوح .. ودون كلمة واحدة أطفأ الرجـال جميع مصادر الضوء .. وحبسوا الأنفاس .. السبب هو أن الضوء كله كان يأتى من الجهة الأخرى ..

ولبثنا فى الظلام ننظر عبر باب القفص إلى القاعة المجاورة .. الآن نفهم أشياء عن المكان .. واضح أننا الآن تحت الأرض لأن الممر كان ينحدر بزاوية شديدة لأسفل .. ومن الواضح كذلك أن هناك نظام تهوية ومدخنة تخرج كل هذا الدخان إلى مكان بعيد عن المقبرة ..

هناك نار .. نار مشتعلة .. وهناك من يرقص حولها ..

يمكنك أن ترى النساء اللاتى يرقصن حول النار بالداخل .. كلهن منكوشات الشعر يضحكن فى هستيريا وجنون .. بعضهن شابات مليحات وبعضهن قهرمانات فى التسعين من العمر .. هل ترى هذه المرأة ؟ نعم .. هى مسز (بانكروفت) .. لقد تغيرت كثيرًا جدًا لكن من الصعب أن تخطئها .. بالطبع لم تكن إذن فى ذلك الحفل الذى رأته (ماجى) فى تلك الليلة وإلا لعرفناها فى الصور ..

هناك رجال كذلك .. وهم يلبسون ثيابًا حمراء فاقعة اللون .. وقلنسوات .. هذا الفتى ضخم الجثة هو (أونيل) طبعًا أما هذا فهو ـ صدق أو لا تصدق ـ الشرطى عديم الكفاءة .. ثمة رجلان أعرفهما لكن لا أعرف اسميهما .. إذن عاد (أونيل) من (دبلين) خصيصًا من أجل موعد الطقوس هذه ..

الغناء يتعالى ولا يمكنك أن تفهم حرفًا منه ..

هناك ما يوحى بأن حفل شواء سيقام حالاً .. هناك قدر يغلى على النار وهناك نطع كبير عليه شاطور .. وهناك ...

فى منتصف المكان يوجد سرير حجرى .. وعلى هذا السرير الطفلة مقيدة !

من بين أسنانه ووسط هذا الصخب همس (أونولان) بصوت كالفحيح :

ـ « واضح أن الحفل فى ذروته .. لاشك أن موعد

التضحية البشرية قادم .. الخطة كما يلى .. سأقتحم المكان أنا ورفيقاى .. ونناولكما الطفلة .. غادر المكان أنت والآنسة ولا تنظر للوراء أبدًا .. نحن نعرف كيف ندبر أمورنا .. »

خطة محكمة .. والحقيقة أنه لاتوجد خطة أخرى . يمكن مثلاً أن تدخل المكان وتطالبهم بتسليمك الطفلة لكن من يعرف كيف يتصرف هؤلاء المخابيل ؟ ربما يسارعون بقتلها قبل أن تأخذها أنت ..

ـ « الآن !! »

وركل الباب ليقتحم القاعة مع رفيقيه .. انطلق الرصاص فى الهواء فتساقطت حجارة من السقف .. وعلى الفور انقض (أوليفر) على رجلين ليخنقهما ، بينما راح الثانى يركل من يسدون طريقه ، وهرع إلى السرير الحجرى أو مائدة التقديمات ، وبخنجر مزق الحبال التى تربط الفتاة ..

كان المشهد الآن قد تحول إلى جحيم .. وراحت (باتكروفت) تعوى كالذئاب :

ـ « لن تهربوا أيها الدنسون ! لن تهربوا !! إن (رونيل السوداء) سوف ... »

فى هذه اللحظة وجدت الطفلة بين ذراعى ، فتذكرت الخطة وهرعت أركض فى الممر و (ماجى) تركض ورائى وهى تنشج ..

نظرت للوراء ، فوجدت مشهدًا لا يصدق ..

إن (رايان) يمسك بجركن كبير تخرج منه خرقة من القماش ، فأشعل طرفها ثم طوحها إلى داخل القاعة .. وسرعان ما جرى الرجال يغادرون المكان .

كلينج !

كان هذا صوت الباب المعدنى إذ يغلق فى وجه السحرة ، ثم لف (أوليفر) الجنزير ليوصده بإحكام .

ـ « افتح أيها المدنس !! »

هنا كانت النار من الفتيل قد أمسكت فى البنزين الذى يملأ الجركن ، وسرعان ما توهجت النار كأنما هى قنبلة ..

هذا المشهد يأخذ مكانه فى ثقة فى ألبوم كوابيسى ليظل هناك إلى يوم الدين .. رباه !!

هذه الوجوه الكالحة الكريهة الممسوخة تتشبث بالباب الحديدى وتعوى كالذئاب محاولة الخروج .. تمد أيديها المخلبية نحونا .. بينما النار تنتشر وتتفاقم ..

هرعنا إلى الخارج حيث ظلام المقبرة الموحى بالسلام ، وكانت (ماجى) تعتصر الطفلة كأنما تريد ضغطها داخل ضلوعها .. حتى لا تسمع كل هذا الصراخ غير الكونى .. حتى لا تشم كل هذا الشياط ..

انتهى الأمر .. لقد صارت الطفلة مجنونة بالتأكيد . ستحتاج إلى علاج نفسى لمدة عشرة أعوام .. ولو لم تجن ستتحول إلى مدمنة مخدرات مثلما حدث فيما بعد

للطفلة (ليندا بلير) التى قامت ببطولة فيلم (طارد الأرواح الشريرة) .. إنها فى منتصف العمر الآن ـ عام ٢٠٠١ ـ لكنها ما زالت تعالج من تجربة الفيلم ..

أمسكت بـ (أونولان) من ياقة سترته وصحت :

ـ « قاتل !! لماذا فعلت هذا ؟ كان بوسعنا أن نحبسهم ونأتى برجال القرية هنا .. »

قال دون أن ينظر لى :

ـ « لقد اتفقنا على هذا مع رجال البلدة .. لا يوجد مظلومون فى هذا القبو .. كانوا سيجدون سبيلاً للفرار .. إنهم سحرة .. »

ـ « لكنك حرقتهم أحياء وبدم بارد .. »

ـ « قلت لك لم يكن مناص من ذلك .. ولا تستفزنى أيها الطبيب .. أنت رأيت بعينيك أنهم كانوا يوشكون على التهام الطفلة .. »

هل نبلغ الشرطة عن هذا ؟ سوف نقرر حالاً .. المهم الآن أن نطمئن على الصغيرة ..

كانت ترتجف لكنها فى حال طيبة .. طبعًا لا إجابات على أية أسئلة .. ذهول لاشك فيه .. وجهها ملطخ بالدماء لكنها ليست دماءها .. إنها دماء رسمت عليه ..

قالت (ماجى) فى حزم :

ـ « الآن نعود إلى الخان .. غدًا نترك هذه البلدة اللعينة بأسرع ما يمكن .. »

ودون أن تنتظر ردى أو ضوءنا ، حملت الطفلة وراحت تشق طريقها عبر المقبرة ..

* * *



الخاتمة ..

فى التاسعة صباحًا دققت باب غرفة (ماجى) ففتحت لى ..

كانت ترتدى الروب ، وقد اغتسلت وتخلصت من آثار الليلة السوداء ، فعادت (ماجى) التى أعرفها .. فى يدها كوب من عصير البرتقال لا أدرى من أين جاءت به ، وعلى وجهها ابتسامة منتعشة لطيفة ..

قالت لى :

ـ « برغم كل شىء لم نخسر واحدًا من رجالنا .. سنعود بكامل عتادنا .. »

ثم غمغمت وهى تنظر فى عينى :

ـ « للأبد ؟ »

ـ « ماذا ؟ »

- « ستكون ملكى للأبد ؟ »

- « وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى ... »

ثم تذكرت ما جئت من أجله ، فقلت لها وأنا أنظر من فوق كتفها :

- « هل الطفلة نائمة ؟ »

- « طبعًا .. لم تنم إلا منذ ساعتين .. ولا ألومها على شىء .. »

قلت لها وأنا أتنحى جانبًا :

- « هلا ارتديت ثيابك ولحقت بى ؟ إن الغرفة رقم (١٣) فارغة وبابها مفتوح .. أريد أن نتكلم هناك على حريتنا .. »

ثم اتجهت إلى الغرفة المذكورة .. غرفة (لورين بلاك) الرهيبة التى بدأت كل هذه الأحداث .. جلست على الفراش ورحت أرتب أفكارى .. بعد قليل ظهرت (ماجى) على الباب فى ثياب بسيطة غاية فى الأناقة كعهدها ..

قلت لها بعد فترة صمت :

- « صباح اليوم عدت إلى المقبرة .. كنت وحدى هذه المرة .. »

- « عدت ؟ ولماذا ؟ »

- « كانت علامات استفهام كثيرة تضايقنى .. لم أستوعب جيدًا ما حدث البارحة .. وماذا تظنين أننى رأيت فوق شاهد قبر (رونيل السوداء) ؟ »

اتسعت عيناها بمعنى أنها غير راغبة فى الاستنتاج ، فقلت :

- « جثة مس (لورين بلاك) !! »

لم أصف لها منظر الجثة .. ولن أصفه لكم لأن هذه قصة وليست مرجعًا فى الطب الشرعى أو دليلاً للسفاحين .. لكنى وجدت جوارها حقيبتها بين الأعشاب وكانت تحوى رزمة من الأوراق ..

- « لقد سمعت ما قلناه على الأرجح وفضلت القرار

عن طريق النافذة .. لقد أدركت أنها صارت هدف غضب الموجودين .. لكنها اتجهت إلى المقابر فى الظلام أو هذا ما أحسبها فعلته .. ثم ... »

ومددت يدى لـ (ماجى) برزمة الأوراق التى كتبت بخط دقيق منمق ..

راحت تتأملها وقالت :

- « هل قرأت الملحوظات ؟ »

قلبت الأوراق ثم راحت تقرأ بصوت عال :

- « تنبأت الساحرة بأنها ستعود بعد ثلاثمائة عام .. من الجميل أن أكون فى القرية فى هذا الوقت .. يجب أن أعيش التجربة كاملة .. ألبس الأسود وأزور مقبرتها من حين لآخر .. سأتخيل أنى هى .. ولن أكتب حرفًا قبل أن أتقمص الدور كاملاً .. »

وتوقفت ومطت شفتها السفلى وقالت :

- « ما معنى هذا ؟ »

- « معناه أن (لورين) لم تكن أكثر من كاتبة قصص رعب ثرية غريبة الأطوار ، كما حسبناها من البداية .. ظلمها جمالها فجعلنا نصدق أى شىء يقال عنها .. بينما عملية استعادة (رونيل السوداء) تتم ولا علاقة لها بها .. »

- « ومن قتل هؤلاء ؟ »

- « ليست هى طبعًا .. هناك عدد كبير فى هذه الجماعة .. لابد أن أحدهم كان ينفرد بالضحية .. معظم الأعمال تحتاج إلى أكثر من واحد على كل حال .. طبعًا لم يكن القاتل هو مسز (بانكروفت) لأنها كانت أمامنا أكثر الوقت .. لابد أن (أونيل) الشاب لعب دورًا لا بأس به .. كذلك الشرطى .. »

- « ولماذا لم نجد هذه الأوراق فى حجرة مس (لورين) ؟ »

- « لاحظى أن الشرطى و (بانكروفت) هما من فتش الحجرة .. هل رأى أحدنا المخطوطات اللاتينية التى زعما أنهما وجداها ؟ بالطبع لا .. كانا يريدان أن تثبت الصورة فى أذهاننا أكثر .. »

ثم مددت يدى فى جيبى وأخرجت بعض الأشياء :

- « هل تعرفين هذه ؟ »

مدت يدها وراحت تتفحص الصور التى التقطتها فى المقبرة ، وهتفت :

- « كيف وجدتها ؟ »

- « تحت نافذتك .. لم يتخلص منها أحد .. لقد ألقيت إلقاء .. »

ثم أخذت منها الأوراق ورحت أقلب حتى وجدت نص كلمات (لورين) على شكل خاطرة :

- « الآن أرجو أن تصغى لهذا الجزء : لم أفهم جيدًا نص كلمات (رونيل السوداء) وهى على المحرقة .. لكن من كانوا دانين سمعوها تتحدث عن العودة بعد ثلاثمائة عام لتنتقم .. ستعود فى شكل طفلة اسمها فى المرآة .. لا أفهم هذا .. »

نظرت لى فى غباء فأخرجت قلمًا من جيبى وخططت على الجدار :

- « ELEANOR -- RONAELE »

وقلت فى تؤدة :

- « لو قرأت (أليانور) بالمقلوب لصارت (رونيل) .. كأنك تضعين الحروف أمام مرآة .. بالمناسبة الساحرة اسمها الأصلى (هيلين) .. و (إليانور) تنويع على اسم (هيلين .. وجدت هذا فى قاموس (وبستر) الذى أحمله دائمًا .. » (*)

هبت واقفة وصاحت :

- « أكرر .. ما الذى تعنيه ؟ »

- « أعنى أن ما رأيناه أمس لم يكن طقوس تضحية بالطفلة .. بل كانت طقوس تنصيب !! إن (رونيل السوداء) قد استحوذت على الطفلة وسوف تبدأ دورة حياة جديدة معها !! »

- « أنت مجنون !! »

- « وما الدافع الذى جعلك تأتين هنا بالذات مع الطفلة فى هذا الوقت بالذات ؟ يسهل أن نتصور أن من

(*) حقيقة ..

سرق الصور هى الطفلة ذاتها وهى من رماها من النافذة .. كانت قد بدأت تتحول لكن التحول لم يكن تامًا .. كان لابد من تنفيذ الانتقام أولاً بعدها يتم الحفل الصاخب .. »

- « نحن قاطعنا هذا الحفل فى ذروته .. »

- « **بل متأخراً جداً ..** »

كان هذا الصوت من وراء كتف (ماجى) فأجفلنا ونظرنا للوراء ..

كان صوت أنثى فى منتصف العمر لكننا وجدنا أمامنا (إليانور) ذاتها حافية القدمين فى قميص نومها .. وعلى وجهها ضحكة لن تصدقها ما لم ترها ..

كانت تقف على الباب ترمقنا بمزيج من حقد وتلذذ وسخرية وكراهية .. وقالت :

- « تأخرتما كثيراً جداً .. لقد عادت (رونيل السوداء) .. وهذه المرة لن يمسها سوء لأن هذا العصر لا يعترف بحرق الساحرات ! »

صحت وأنا أرتجف هلعًا :

- « نحن نعرف كل شىء .. »

- « لكنكما لن تستطيعا المس بى .. يومها ماذا تقولان للشرطة ؟ كانت ساحرة ؟ »

ثم انفجرت فى ضحكة مستهترة قبيحة ماجنة كريهة وخرجت من الغرفة ..

وسقطت (ماجى) على الأرض باكية .. أعترف أن أعصابى لم تسمح لى إلا بالاستناد إلى الفراش .. وهتفت (ماجى) وهى تنشج :

- « لن أتركها .. إنها قريبتى .. سآخذها معى إلى (إنفرنسشاير) وسأفعل المستحيل كى تشفى .. »

- « تأخذين معك من تعيش داخلها ساحرة شريرة ؟ »

- « لاتتوقع منى أن أربطها إلى عمود وأحرقها . إنها حالة نفسية لاأكثر .. ربما فصام من فرط كل ما عانته .. »

قلت لها :

- « أنا كذلك أعتقد أن شفاءها ممكن .. إنها ممسوسة

أو مجنونة .. لأن الساحرة لم تعد للحياة ولم تغادر قبرها .. ربما أمكن أن نجد حلاً .. »

ولبثنا ساعات على الأرض نرتجف .. ونفكر فى المستقبل الغامض ..

* * *

لم تنته قصة (إليانور) وكانت لى معها تتمة سأحكيها فيما بعد .. لكنى كنت مرغمًا على العودة إلى مصر ، وقد أنذرت (ماجى) بأن تتخلص من الطفلة فى أقرب فرصة .. طبعًا كان هذا نفخًا فى قربة مثقوبة لأننى أعرفها .. وأعرف نفسى ..

هل الطفلة مريضة أم ممسوسة ؟ لم أعرف هذا إلا بعد فترة ..

أما عن أرض العظايا فكانت تنتظرنى بقصة لا بأس بها من (سالم وسلمى) ..

لكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة المقبرة

هناك مقبرة ..
لا باس بهذا كبداية .. هناك - كالعادة - أشياء تخرج من هذه المقبرة ليلاً .. هناك ساحرة محترقة .. هناك اجتماعات سرية فى الظلام .. هناك غراب يتلصص .. هناك (ماجى) وعجوز أصلع أحمق . باختصار : الروتين المعتاد .. إن القصة تبدأ كالتالى ...



د. أحمد خالد توفيق

... فى مصر ٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة أرض العظايا